صفات المفلحين كما وردت فى سورة المؤمنون

د/ سليم حسين حنفى

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

صفات المفلحين كما وردت فى سورة المؤمنون

الحمد لله منَّ علينا بنعمة الإسلام ، ووعد من أطاعه دار السلام ، وأشهد أن لاَ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ،الملك العلام ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه السادة الأعلام . *أما بعد*

فإن القرآن الكريم ، فيه بيان لكل أسباب الفوز والفلاح ، وسبل الرقى والصلاح ، وتفصيل كامل لكل ما به يصلح أمر الإنسان ، ولكل ما فيه حياة القلوب ، وتزكية النفوس ، وتربية الفضائل ، ولما كانت سعادة الإنسان وفلاحه منوطاً باتباع منهج الله تعالى ، وكانت الآيات الأولى من سورة المؤمنون ، فيها بيان لبعض أفرع هذا المنهج حيث فصلت صفات المفلحين ، آثرت الكتابة فيها لكى أذكر الناس بسبل الفلاح ، التى تبلغ بهم أحسن حال فى الدنيا ، وأعلى منزلة فى الآخرة وقبل أن أشرح هذه الصفات ، أود أن أعرف بسورة المؤمنون ، عبر الأسطر التالية :-

فى رحاب سورة المؤمنون

١- اسمها :

قال ابن عاشور ، تسمى " سورة المؤمنون " على حكاية لفظ : " المؤمنون " الواقع أولها فى قوله تعالى : " قد أفلح المؤمنون " فجعل ذلك اللفظ تعريفاً لها .

وتسمى " سورة المؤمنين " على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنيـــن ، لافتتاحـها بالإخبار عن فلاحهم ، وتسمى " سورة قد أفلح " .. [١]

٢- زمان ومكان نزولها :-

قال الألوسى : (سورة المؤمنون مكية بلا خلاف ، واســتثنى منـها قولـه تعالى : " حتى إذا أخذنا مترفيهم " إلى قوله تعالى " مبلسون ") . [٢]

وهى السورة الثالثة والعشرون من سور القرآن الكريـم ، بحسـب ترتيـب التلاوة المستقر عليه بعناية من أنزله سبحانه نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل ســورة السجدة .

٣- آيها :-

قال ابن عاشور : (وآياتها مائة وسبع عشرة فى عدّ الجمـــهور ، وعدّهـا أهل الكوفة مائة وثمان عشرة ، فالجمهور عـــدّوا : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آية ، وأهل الكوفة عـدّوا : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ آيـة ، وما بعدها آية أخرى) . [٣]

٤- مناسبتها لما قبلها :-

١-قال تعالى : فى ختام الســورة الســابقة - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤] . وفى صدر هذه السورة ذكر

---

[١] التحرير والتنوير-الشيخ محمد الطاهر بن عاشور"١٨/٥،ط الدار التونسية، بتصرف .

[٢] أى من الآية ٦٤ - ٧٧ .

أنظر تفسير الألوسى : ١٨/٣ ط ، دار الفكر . بتصرف .

[٣] التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر عاشور : ١٨ / ٧ ط : الدار التونسية وانظـــر أيضاً المرجع السابق .

[٤] سورة الحج : الآية ٧٧ .

أوصاف المؤمنين ، التى أفلحوا بسببها ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ... الآيات ﴾ .

٢-مناسبة أخرى : قال تعالى فى السورة السابقة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [١] فذكر هنا كيفية اخضرار الأرض ، بذكر ما ينبته فيها من أنواع الثمار . فقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ... ﴾ [٢] .

٥- مقاصد السورة الإجمالية :-

سورة المؤمنون – كأخواتها من السور المكية – اهتمت بقضية التوحيد ، والوحى والرسالة ، والبعث . وعالجت حقائق العقيدة الأساسية ، من توحيد الألوهية ، والنبوة ، والحياة الأخرى ، ودارت حول محور إثبات الوحدانية ، وإبطال الشرك ، والتنويه بالإيمان وصفاته ودلائله .

بدأت السورة ببشارة المؤمنين بالفلاح ، موضحة صفاتهم الحميدة وتوريثهم الفردوس الأعلى .

ثم انتقلت إلى دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، مبينة قدرة الله ونعماءه فى خلق الإنسان ، وأطوار خلقه ، وحياته ، ثم موته ، ثم بعثه . ثم انتقلت من الإنسان – وهو العالم الصغير – إلى العالم الكبير ، المتمثل فى السموات وما فيها ، والأرض والنبات والحيوان والفلك ، والماء المنزل من السماء لتحيا به البلاد والعباد

---

[١] سورة الحج : الآية ٦٣ .

[٢] سورة المؤمنون : الآية ١٨ – ١٩ وراجع جواهر البيان فى تناسب سور القرآن محمد الصديق الغمارى ، ص : ٦٦ – ٦٧ ، ط مكتبة القاهرة .

، وفى كل ذلك براهين واضحة على توحيد الله وقدرته ، وعظيم صنعه ، وأحقيته بالعبادة وإفراده بالألوهية .

ومن النعم المادية انتقلت السورة إلى الحديث عن النعم الروحية ، المتمثلة فى الرسل والرسالات ، فعَرضت السورة لقصص بعض الأنبياء ، تسلية لرسول الله ﷺ ، عما لقيه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وابنها عيسى ، ثم عرضت السورة لكفار مكة وعنادهم ، ومكابرتهم للحق الظاهر ، واغترارهم بنعم الله عليهم ، ثم ذكرت ثناء الله تعالى ، على أهل الإيمان والتقوى ، ثم عادت إلى أولئك الغافلين المتمادين فى غيهم ، تذكرهم بحالهم يوم يأخذهم العذاب ، فإذا هم يصرخون مستغيثين ، فيأخذهم التأنيب والتوبيخ ، على عدم تدبرهم القول ، وطعنهم فى القرآن ، ثم تستنكر السورة موقفهم المخالف ، من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ، وقد أتاهم بالحق لا يسألهم عليه أجراً ، وهم – مع ذلك – لأهوائهم متبعون ، وعن الحق معرضون ، وعن الصراط ناكبون ، وبالبعث مكذبون ، وله منكرون ، لا تزجرهم نقمة ، ولا يشكرون نعمة ، ثم تلفت السورة الأنظار ، إلى البراهين الدالة على وجود الله ووحدانيته ، فهو الذى خلقهم مزودين بالحواس النافعة ، كالسمع والبصر والعقل ، وهو الذى يملك وحده الموت والحياة ، والتصرف فى الليل والنهار ، طولاً وقصراً ، وهو الذى يملك الأرض ومن فيها ، وهو رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، وهو المسيطر على كل شئ فى السموات والأرض ، والمشركون يسلمون بكل ذلك ، ثم ينكرون البعث ، ويزعمون لله ولدا سبحانه ! ثم تدعهم السورة ، وزعمهم ، متوجهة بالخطاب إلى رسول الله ﷺ فتأمره أن يغض عن سوء معاملتهم ، ويدفعها بالتى هى أحسن ثم تحدثت السورة عن الأهوال التى يلقاها الكفرة عند الاحتضار ، وعن يوم القيامة ، حيث تنقطع الأنساب ، وينقسم الناس إلى مفلحين سعداء ، وإلى خاسرين أشقياء ، ثم تذكر السورة أطرافاً من أحوال الأشقياء فى النار ، والسعداء فى الجنة وما يجرى بين الجبار وأهل النار من الحوار ، فلا يجابون ، ثم ختمت السورة بنفى العبث عن الله سبحانه ، فى خلق الناس ، وكل المخلوقات ، وبنفى الفلاح عن الكافرين ، الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، فى مقابل تقرير الفلاح فى

أول السورة للمؤمنين ، وبطلب المغفرة والرحمة من الله تعالى : " وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين " . وذلك هو الفلاح الذى ابتدئت به السورة الكريمة .

وبعد هذا العرض المجمل لما تضمنته سورة المؤمنون ، من المقاصد والأهداف ، أبدأ – مستعيناً بالله تعالى – فى شرح صفات المفلحين التى وردت فى صدر هذه السورة – وبيانها طبقاً لنسق ترتيبها القرآنى .

والله ولى التوفيق

*****

١- الإيمـــــــان

الصفة الأولى من صفات المفلحين ، التى وردت فى سورة المؤمنـــون هـــى الإيمان ، وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . [١]

١- بيان المفردات :-

" قد " إذا كانت " لمّا " حرف يفيد نفى ما هو متوقع ، فإن " قد " حرف يفيد تحقـــق وقوعه . والفلاح للمؤمنين منتظر مرتقب ، فكانت " قد " لتحقيقه بعد انتظاره وتوقعه

قال الرازى : إن " قد " نقيضة " لما " فقد تثبت المتوقع وما تنفيه . ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبـــات الفـــلاح لـــهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه . [٢]

وأقول : إن فى ختام سورة الحج ما يرشح لهذا التوقع ، ويشير إليه ، فـــى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣].

٢- " أفلح " الفلاح : الفوز ، والبقاء ، والنجاة . وهـــو اســـم ، والمصـــدر : الإفلاح .

قال القرطبى : (والفلح : أصله فى اللغة الشق والقطع ، فكأن المفلـــح قـــد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه ، وقد يستعمل فى الفوز ، والبقاء وهو أصله أيضـــاً

---

[١] سورة المؤمنون : الآية ١ .

[٢] تفسير الإمام الرازى : ١١ / ٣٤١ ط ، دار الغد ، وانظر رصف المبـــانى فـــى شـــرح حروف المعانى للإمام أحمد المالقى ، ص ٣٩٢ ، باب : قد ، ط مجمع اللغـــة العربيـــة بدمشق ، تحقيق أحمد الخراط .

[٣] سورة الحج : الآية ٧٧ .

فى اللغة ، ثم الفلاح فى العرف : أى فى الشرع – الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب) . [١]

وعلى هذا فمعنى قوله : " قد أفلح المؤمنون " أى : قد دخلوا فى الفلاح ، واتصفوا به ، وفازوا بالجنه ، وداموا فيها ، وسلموا من العذاب والمفلحون : هم الذين فازوا بالمراد ، وبقوا فى الخير ، وأدركوا ما طلبوا ونجوامن شر ما منه هربوا .

٣ – معنى الإيمان لغة وشرعا :

الإيمان : مصدر آمن . قال صاحب مذكرة التوحيد : (الإيمان فى اللغة : الأمن من التكذيب والمخالفة ، ثم نقل لغة إلى مطلق التصديق بأى أمر حقا كان أو باطلا قال تعالى : ﴿ ... وما أنت بمؤمن لنا ... ﴾ [٢] وفى الشرع : للعلماء فيه مذاهب ثلاثة :

الأول : مذهب جمهور الأشاعرة والماتريدية . الإيمان شرعا : هو تصديق نبينا محمد ﷺ فى كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة . والمراد من التصديق : الإذعان والرضا والقبول ، لا مجرد وقوع نسبة الصدق فى القلب من غير إذعان .

الثانى : مذهب أبى حنيفة ومن معه ، الإيمان شرعا : هو التصديق مع الإقرار ، فهو اسم لعمل القلب واللسان ، فالإقرار جزء من حقيقة الإيمان .

الثالث : مذهب الخوارج والمعتزلة والفقهاء مع المحدثين . الإيمان شرعا : هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل . [٣] والذى أختاره من هذه

---

[١] تفسير الإمام القرطبى : ٢٢٩/١ – ٢٣٠ ، ط : دار الغد . بتصرف .

[٢] سورة يوسف ، الآية ١٧ .

[٣] مذكرة التوحيد والفرق – حسن السيد متولى : ١ / ٤٤ – ٤٨ ، ط : المكتبة الأزهرية .

المذاهب فى معنى الإيمان ، مذهب الجمهور لقوة أدلته من القرآن والسنة ، فمن القرآن قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ... ﴾ [١]

ومن السنة ما ذكره النبى ﷺ فى بيان الإيمان جواباً لسؤال جبريل له ، وذلك فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : كان النبى ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ... ثم قال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم " قال أبو عبد الله [٢] : جعل ذلك كله من الإيمان " [٣] .

٤- أصول الإيمان وأركانه :-

قد ذكر الله تعالى أصول الإيمان ، وأركانه فى مواضع كثيرة ، من كتابه الكريم منها قوله تعالى : (... وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ...) [٤] وقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [٥] .

وقد فسَّر النبى ﷺ الإيمان مبيناً أصوله أيضاً ، كما فى حديث سؤال جبريل السابق ، فذكر الإيمان بالله وملائكته ولقائه ورسله والبعث .

---

[١] سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

[٢] هو الإمام البخارى رحمه الله تعالى .

[٣] فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ابن حجر العسقلانى ، ك : الإيمان ، ب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان ، ١ / ١١٤ ط : دار المعرفة .

[٤] سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

[٥] سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

٥- المعانى التى وردت للإيمان فى القرآن :

إذا ورد لفظ الإيمان فى القرآن الكريم ، متعلقاً بحرف جر ، كان بمعنى التصديق . [١] وإذا لم يرد متعلقاً بحرف جر ، واقترن معه فى الذكر لفظ الإسلام ، كان أيضاً على معناه الأصلى من التصديق [٢] .

وإذا لم يرد متعلقاً بحرف جر ، ولم يكن معه فى الذكر لفظ الإسلام كان معناه التصديق والعمل ، فيشمل الإسلام أيضاً . على حد قولهم : إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا . يعنون : إذا اجتمع لفظهما اختلف معناهما ، وإذا افترق لفظهما اجتمع معناهما . أى : أن كل لفظ إيمان أو إسلام ذكر منفرداً فى مقام المدح ، فإنه يراد بالواحد منهما ما يشملهما .

وعلى ذلك فإنى أختار فيما هنا من قوله : " قد أفلح المؤمنون أن الإيمان بمعناه الشامل أيضاً للإسلام .

وفى توضيح هذا المعنى ، وتأييده قال ابن رجب : (إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره ، صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دال على باقيها ، وهذا كاسم الإسلام والإيمان ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، فإذا قرن بينهما ، دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ، ودل الآخر على الباقى . وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة ، وقال به : كثير من أهل السنة والجماعة ...) [٣].

---

(١) كما فى قوله تعالى: ﴿ ...فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ... ﴾ سورة البقرة ، الآية ٢٥٦

(٢) كما فى قوله تعالى : ﴿ ... قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾ سورة الحجرات ، الآية ١٤ .

(٣) جامع العلوم والحكم - ابن رجب الحنبلى ، ص ٢٦-٢٧ ، ط : مصطفى الحلبى . وانظر تفسير سورة المؤمنون - أ.د / عبدالغنى الراجحى ، ص ٤٢ - ٤٣ .

وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ويخشاه ، فيستقيم على صراطه ، فلا يظلم ، ولا يقتل ، ولا يسرق ، ولا يزنى ، ولا يغش ، ولا يخون ، ولا يعمل سوءاً ، ولا يكسب إثماً ، وهو مؤمن ، فبذلك تصلح الحياة ، ويتماسك المجتمع ، ويتآخى أفراده.

هذا والإيمان يثمر الأعمال الصالحة ، والكلمات الطيبة ، فيفتح الله به على المؤمنين الخيرات والبركات ، من كل جانب ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴾[1]

٧- المعنى الإجمالى :-

ومعنى قوله تعالى : " قد أفلح المؤمنون " أى : فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة ، ولقد تحقق ظفرهم وفلاحهم ونجاحهم ، بسبب الإيمان والعمل الصالح .

والآية وعد صادق وأكيد ، من الله تعالى بفلاح المؤمنين ، بفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، بفلاحهم أفراداً أو جماعات ، وعد بالفلاح الذى يستشعره المؤمن بقلبه ، ويرى أثره فى واقع حياته وعد بالفلاح الذى يشمل ما يعرف الناس من معانى الفلاح وجوانبه ، وما لا يعرفون ، مما يدخر لهم عند الله ليجدوه يوم الجزاء.

****

---

[1] سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

وبهذا التفصيل الذى ذكره ابن رجب وحكاه عن كثير من العلماء ، يزول الاختلاف بين النصوص التى لا تفرق بين الإيمان والإسلام ، وبين حديث سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان ، وتفريق النبى ﷺ بينهما ، وإدخاله الأعمال فى مسمى الإسلام ، دون الإيمان . [١]

فيقال : إذا أفرد كل من الإيمان والإسلام بالذكر فلا فرق بينهما ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق ، فيكون المراد بالإيمان حينئذ : جنس تصديق القلب ، وإقراره ومعرفته . وبالإسلام : جنس العمل وهو استسلام العبد لله ، وخضوعه ، وانقياده له ، وذلك يكون بالعمل ، وهو الدين ، كما سمى الله فى كتابه الإسلام ديناً ، [٢] .

وفى حديث جبريل – المشار إليه سابقاً – سمى النبى ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً . وهذا مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر ، وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر .

٦- منزلة الإيمان وأثره فى حياة المجتمع :-

تأتى صفة الإيمان فى مقدمة صفات المفلحين وتتصدرها ، لأنها أجل الصفات ، وأعلاها وأعظمها وأفضلها ، ولأن الإيمان مفتاح كل سعادة ، ومنبع كل خير ، وسبيل كل صلاح وفلاح ، وشرط صحة الأعمال ، وسر قبولها ، فلا صحة لعمل صالح ، ولا قبول له ، مهما عظم وكثر إلا إذا كان عامله مؤمناً ، وذلك هو السر فى نيط الفلاح هنا بوصف الإيمان ، كما أشار إليه صاحب التحرير حيث قال : (ونيط الفلاح بوصف الإيمان ، للإشارة إلى أنه السبب الأعظم فى الفلاح ، فإن الإيمان وصف جامع للكمال ، لتفرع جميع الكمالات عليه) [٣]

---

[١] الحديث سبق ذكر جزء منه . وانظره كاملاً فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر : الإيمان ب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان : ١ / ١١٤ ، ط : دار المعرفة

[٢] وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ... ﴾ سورة آل عمران ، الآية ١٩.

[٣] التحرير والتنوير : الشيخ محمد الطاهر عاشور ، ١٨ / ٨ ، ط: الدار التونسية .

٢- الخشوع فى الصلاة

الصفة الثانية من صفات المفلحين ، التى وردت فى هذه السورة الكريمة هى الخشوع فى الصلاة ، وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [١]

١- المناسبة :

المناسبة بين هذه الآية ، وما قبلها : أن هذه الآية بمثابة جواب لسؤال يصدر ممن يسمع الآية السابقة ، فإنه يجد نفسه مضطراً لأن يسأل قائلاً : من هم المؤمنون الذين وعدهم الله هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ، من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر ، والسعادة ، والتوفيق ، والمتاع الطيب فى الدنيا ؟ والمكتوب لهم الفوز والنجاة ، والثواب والرضوان فى الآخرة ؟

فكان الجواب فى هذه الآية الثانية وما بعدها ، أى : أنهم الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح ، أنهم " الذين هم فى صلاتهم خاشعون " إلى آخر الآيات المبينة لتلك الصفات .

٢- سبب النزول :

قال ابن الجوزى : (روى عن أبى هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت : " الذين هم فى صلاتهم خاشعون " فنكّس رأسه) . [٢]

---

[١] سورة المؤمنون الآية : ٢ .

[٢] زاد المسير ... ابن الجوزى : ٥ / ٣١٤ ، ط : دار الفكر ، تحقيق محمد عبدالرحمن .

وقال ابن كثير : (قال ابن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ، فلما نزل : ﴿ قد أفلح المؤمنون* الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ " خفضوا أبصارهم ". [١]

أقول : ولا تعارض بين هذا وسابقه ، لاحتمال أن الصحابة كانوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ، لما رأوا رسول الله ﷺ قد فعله ، أو لاحتمال تكرر النزول لتكرر السبب .

٣- معنى الصلاة والمراد بها هنا :-

والمراد بالصلاة هنا : هى العبادة المعروفة المخصوصة ، ومعناها – كما قال الجزيرى – : (فى اللغة : الدعاء بخير ، وفى الشرع :أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة) . [٢]

٤-أقوال العلماء فى معنى الخشوع :

قد كثرت أقوال العلماء فى معنى الخشوع ، واختلفت عبارتهم فى بيان مفهوم هذه الكلمة ، وإليك بعض هذه الأقوال ، ثم الجمع بينها أو الترجيح :-

قال الراغب : (الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح . والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد فى القلب) [٣] .

وقال القرطبى : (الخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال عن قتادة : " الخشوع فى القلب . وهو : الخوف ، وغض البصر فى الصلاة " وقال عن النخعى : " الخشوع : أن ترى الشريف والدنئ فى الحق

---

[١] تفسير ابن كثير : ٥ / ٤٥٦ ، ط : دار الشعب .

[٢] الفقه على المذاهب الأربعة – عبدالرحمن الجزيرى : ١/١٥٦ ، ط : دار الإرشاد .

[٣] المفردات فى غريب القرآن – الراغب الأصفهانى ، ص : ١٤٨ ط ، مصطفى الحلبى .

سواء ، وأن تخشع فى كل فرض افترض عليك " . وقال عن عطاء : " الخشوع : هو أن لا يعبث بشئ من جسده فى الصلاة) . [١]

وقال ابن الجوزى : (أصل الخشوع فى اللغة : الخضوع والتواضع والمراد بالخشوع فى الصلاة : النظر إلى موضع السجود ، أو ترك الالتفات فى الصلاة ، وأن تلين كنفك – جانبك – للرجل المسلم . أو أنه السكون فى الصلاة ...) [٢] .

وقال الألوسى : (والخشوع : التذلل مع خوف وسكون للجوارح . ولذا قال ابن عباس : " خاشعون " : خائفون ساكنون " . وقال ابن يسار " تنكيس الرأس " . وقال الضحاك : " وضع اليمين على الشمال " ، وعن أبى الدرداء : " إعظام المقام ، وإخلاص المقال ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام ") [٣] .

وللإمام الغزالى فى أدب المؤمن بين يدى الله تعالى – مما يدخل فيما نحن بصدده .. كلام جيد فليرجع إليه من يرغب فى المزيد) [٤] .

٥ – الجمع بين تلك الأقوال :

والمتأمل فى أقوال العلماء السابقة فى معنى الخشوع ، لا يكاد يجد بينها اختلافاً ، ومن ثم يمكن الجمع بينهما ، لأنها متقاربة فى المعنى ، داخلة كلها فى مفهوم الخشوع ، ملتقية كلها عند معنى واحد ، واختلافهم فى التعبير عن هذا المعنى ، راجع إلى أن منهم من جعله من أعمال القلوب ، ومنهم من جعله من أعمال الجوارح ، ومنهم من جعله من أعمال كليهما ، ولا تعارض بين كل ذلك ، لأن من جعله من أعمال القلوب ، قد صرح بأنه ينعكس أيضاً على الجوارح ، بمعنى أنه

---

[١] تفسير الإمام القرطبى : ٤٦٣٦/٦ ، ٤١٥/١ ، ط: دار الغد .

[٢] زاد المسير ... ابن الجوزى : ٣١٤/٥ ، ط : دار الفكر . تحقيق محمد عبدالرحمن وآخر .

[٣] تفسير العلامة الألوسى : ١٨ / ٣ – ٤ ، ط : دار الفكر .

[٤] الأدب فى الدين – أبو حامد الغزالى : ص ١٥ – ١٦ ، ط : الشروق ، تحقيق / عبدالله أبو زينة .

إذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها لخشوعه ، ومن جعله من أعمال الجوارح لم ينكر تأثرها بخشوع القلب ، لأنها لا تخشع من ذاتها ، بل لا يتحقق خشوعها إلا إذا تحقق خشوع القلب ، لأنه ملكها وقائدها ، وصلاحه وخشوعه ، يقتضى صلاحها وخشوعها) . [١]

وهذا معنى قول قتادة السابق : " الخشوع فى القلب " أى : فيه ينشأ ، ومنه يبدأ ، ثم يجاوزه منتهيا إلى الجوارح والأعضاء كلها .

ومن جعله من أعمال كليهما فهذا واضح لا يخفى ، لأن لكل من القلوب والجوارح خشوعها ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر . بل هما متلازمان .

هذا ومن عرف الخشوع بالضراعة ، يدخل فيه قول : من عرفه بالخوف ، وبهيئة فى النفس ، وبالخضوع والتذلل ، وإعظام المقام ، وإخلاص المقال ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام ، وبأنه معنى يقوم بالنفس ، لأن كل ذلك من أعمال القلب .

ومن عرفه بسكون الجوارح . يدخل فيه قول من عرفه بالتواضع ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وبغض البصر ، وترك العبث بالثوب والجُسد ، والنظر إلى موضع السجود ، وترك الالتفات ، وتنكيس الرأس وبوضع اليمين على الشمال ، لأن كل ذلك من أعمال الجوارح . وجمع الاهتمام . يتبعه ترك كل ما يتنافى مع الخشوع ، كالالتفات – وهو من الشيطان [٢]– ورفع البصر إلى السماء ، ووضع اليد على

---

[١] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : " أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى صلاته فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه " . فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٢/٢٢٥ ، ط : دار المعرفة . وفيه إشارة إلى أن الظاهر عنوان الباطن .

[٢] عن عائشة قالت : " سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ك : الآذان ، ب : الالتفات فى الصلاة : ٢ / ٢٣٤ ، ط : دار المعرفة ، والاختلاس : من خلس الشئ واختلسه وتخلسه أى : استلبه ، المرجع السابق .

الخاصرة ، والتميل والتمطى ، والتثاؤب ، وتغطية الفم ، وإرخاء الثـوب ، وفرقعـة الأصابع وتشبيكها ، وتقليب الحصى . لمنافاة كل ذلك للخشوع .

ولعلى بذلك أكون قد وفقت فى الجمع بين تلك الأقوال ، وأزلـت مـا يبـدو بينها من اختلاف ، لغير المتأمل .

٦ - الرأى الراجح والمختار :

والذى أراه وأرجحه أن الخشوع من أعمال كل من القلوب والجوارح ، وهـو ما قال به القرطبى وغيره – حيث قال : (الخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فـى الجوارح سكون وتواضع . والخشوع محله القلب ، فإذا خشع خشعت الجوارح كلـها لخشوعه ، إذ هو ملكها ، وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة ، وقـام إليـها ، يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شئ ، وأن يحدث نفسه بشئ من الدنيا) . [١]

وهو ما قال به أيضاً صاحب الظلال حيث ذكر مـا ملخصـه : (تستشـعر قلوبهم رهبة الموقف بين يدى الله تعالى فتسكن وتخشع فيسرى منها الخشوع إلـى الجوارح والملامح ، والحركات ، ويغشى أرواحهم جلال الله فتختفى مـن أذهانـهم جميع الشواغل ، ويتوارى عن حسهم كل ما حولهم وما بهم ، فلا يشـهدون إلاَّ الله ، ويتطهر وجدانهم من كل شائبة ، وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص ، إلا ما يتصل منها بالله تعالى) . [٢]

وعليه فإن للقلوب خشوعها ، وللجـوارح خشـوعها ، ولكـن لا تخشـع الجوارح إلا إذا خشعت القلوب . والذى يرى على الإنسان من الخشوع إنما هو مـا يتعلق بالجوارح ، أما ما يتعلق بالقلب من الخشوع فلا يراه إلا الله تعالى . ولا يعلمه أحد سواه .

---

[١] تفسير الإمام القرطبى : ٦/٤٦٣٦ ، ١/٤١٥ ، ط : دار الغد . بتصرف .

[٢] فى ظلال القرآن – سيد قطب : ٤/ ٢٤٥٤ ، ط : دار الشروق . بتصرف .

والذى أراد أيضاً ، أن الخشوع يختلف معناه باختلاف الموصوف به أو المضاف إليه ، فخشوع القلب : ضراعته وتخوفه . وخشوع الجوارح : سكونها . وخشوع البصر : الغض منه ، وخشوع النفس : تواضعها ولين جانبها وخفض جناحها ، وخشوع الدار : خلوها من ساكنيها ، وخشوع الصوت : الغض منه .

٧- منزلة الخشوع فى الصلاة :

الخشوع فى الصلاة روحها ، فصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح . ولذلك قدم وصفهم بالخشوع فى الصلاة على سائر الصفات ، مما يفهم منه التنويه بشأن الخشوع . فإنه يجعل المصلى يتذوق لذة العبادة ، ويشعر بحلاوة الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخاشع يجد فى صلاته راحة ومتعة ، وسهولة وخفة ، أما غير الخاشع فيحرم من كل ذلك ، فهو يجد فى صلاته مشقة وثقلاً على نفسه وصعوبة على حد قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ . [1]

أى : وإن الصلاة لشاقة صعبة ، ثقيلة على النفوس إلا على المتواضعين المستكينين ، فإن الصلاة سهلة عليهم ، خفيفة على نفوسهم ، ممتعة لأرواحهم ، مريحة لقلوبهم .

وعليه فيجب على المصلى أن يتحلى بالأدب والسكينة والوقار ، والخوف الذى يقتضى تعظيم المخوف منه ، واستحضار عظمته سبحانه وهيبته ، وسكون الأعضاء .

هذا والخشوع إنما يحصل لمن فرغ قلبه للصلاة ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها . وعندئذ تكون واحة له وقرة عين .

٨- البلاغة وأسرار التعبير :-

بقى فى هذا المقام أن أشير إلى ما فى قوله تعالى : " والذين هم فى صلاتهم خاشعون " من وجوه البيان ، وأسرار التعبير القرآنى المعجز .

---

[1] سورة البقرة : الآية ٤٥ .

ومن ذلك : تقديم الجار والمجرور فى قوله : " فـــى صلاتـــهم خاشـــعون " للاهتمام بالصلاة ، والتشويق إلى ما يذكر بعدها من الخشوع .

وأضاف الصلاة إليهم : باعتبار إقامتهم لها ، وانتفاعهم – دون غـــيرهم – بثوابها ، وللإيذان بأن لهم تعلقا شديدا بها ، لأن الإضافة تفيـــد قـــوة الصلـــة بيـــن المضاف والمضاف إليه . وفى توجيه ذلك أيضا قال الألوسى : (وتقديم الظـــرف : " فى صلاتهم " قيل : لرعاية الفواصل . وقيل : لقرب ذكر الصلاة ، من ذكر الإيمـــان ، فإنهما أخوان ، وقد جاء إطلاق الإيمان عليها فى قوله تعـــالى : ﴿ ... وما كان الله ليضيع إيمانكـــم – أى صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس – إن الله بالناس لرؤوف رحيـــم ﴾ . [١]

وقيل : للحصر على معنى : الذين هم فى جميع صلاتهم – دون بعضـــها – خاشعون) . [٢]

ومن ذلك أيضا ما أشار إليه ابن عاشور حيث قال : (وتقييد الخشوع هنـــا بكونه فى الصلاة : لإرادة الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع فيها خاصـــة : لأنها أولى الحالات بإثارة الخشوع فيها وقوته ، ولأنه بالصلاة أعلق ، لأنها خضـــوع لله وخشوع له ، ولأنه لما كان لله كان أولى الأحوال به الصلاة ، لأن المصلى ينـــاجى ربه فيشعر نفسه أنه بحضرته فيخشع له ، فوق ما تدل عليه الجملة الإســـمية فـــى قوله : " فى صلاتهم خاشعون " من ثبات الخشوع لهم ودوامه ، أى كون الخشـــوع خلقا لهم لا ينفك عنهم ، وهذا من آداب المعاملة مع الخـــالق تعـــالى ، وهـــى رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها) . [٣]

---

[١] سورة البقرة الآية : ١٤٣ .

[٢] تفسير العلامة الألوسى : ٤/١٨ ، ط : دار الفكر ، بتصرف .

[٣] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر عاشور : ٩/١٨–١٠ ، ط : الدار التونسية ، بتصرف .

٩- المعنى الإجمالى :

أى : ومن صفات المؤمنين المفلحين أيضا : أنهم فى صلاتهم خائفون وجلون لاستيلاء الهيبة من الله تعالى على قلوبهم ، ساكنون متذللون لجلال الله سبحانه وعظمته ، مشغولون بالله وبصلاتهم وبالوقوف بين يدى ربهم عن كل ما سواه جل وعلا .

٣- الإعراض عن اللغو

الصفة الثالثة من صفات المفلحين فى هذه السورة الكريمة : الإعراض عن اللغو ، وهى المشار إليها فى قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ . [١]

١- المناسبة :-

المناسبة بين هذه الصفة والتى قبلها : أن الصفة السابقة تتعلق بأدب القلوب والجوارح ، وهذه الصفة تتعلق بأدب الأقوال والأفعال .

وفى تلك المناسبة أيضا قال الرازى : (واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة ، اتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس ، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف – والله أعلم) . [٢]

وقال أيضا ابن عاشور : (وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو ، لأن الصلاة فى الأصل الدعاء ، وهو من الأقوال الصالحة ، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة ، بجامع الضدية ، فكان الإعراض عن اللغو بمعنى :

---

[١] سورة المؤمنين : الآية ٣ .

[٢] تفسير الإمام الرازى : ١١/٣٤٦ ، ط : دار الغد .

الإعراض عما تقتضيه الصلاة والخشوع ، لأن من اعتاد القول الصالح ، تجنب القول الباطل ، ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور) . [١]

٢- أقوال العلماء فى معنى اللغو :-

قد تنوعت عبارات العلماء فى معنى اللغو : ففى المعجم : (اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع ، والكلام يبدر من اللسان ولا يراد معناه) . [٢]

وقال القرطبى : (اللغو : مصدر : لغا يلغو و يلغى ولغى يلغى لغا إذا أتى بما لا يحتاج إليه فى الكلام ، أو بما لا خير فيه) . [٣]

وعرفه الجرجانى فقال : (ضم الكلام ما هو ساقط العبرة منه ، وهو الذى لا معنى له فى حق ثبوت الحكم) . [٤]

وقيل : اللغو : ما لا يحمل من الأقوال . واشتهر فى الكلام الذى يكون لاعن روية وتدبر فكر فيجرى مجرى اللغاء وهو صوت العصافير .

وقال ابن الجوزى : (وفى المراد باللغو هنا خمسة أقوال : الشرك ، أو الباطل ، أو المعاصى ، أو الكذب ، أو الشتم والأذى الذى كانوا يسمعونه من الكفار) . [٥]

وقال الرازى : (وفى اللغو أقوال : الأول : أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة . الثانى : أنه

---

[١] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ١١/١٨ ، ط : الدار التونسية .
[٢] المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية : ص ٥٦٠ ، ط : الوزارة ، مادة : لغا .
[٣] تفسير الإمام القرطبى : ١٠١١/١ ، ط : دار الغد .
[٤] التعريفات – محمد الجرجانى ، ص : ١٩٢ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت .
[٥] زاد المسير ... الإمام الجوزى ٣١٤/٥ ، ط : دار الفكر ، بيروت .

عبارة عن كل ما كان حراما فقط . وهذا أخص من الأول . الثالث : أنه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة . وهذا أخص من الثانى . الرابع أنه المباح الذى لا حاجة إليه) . [١]

٣- الجمع بين هذه الأقوال :-

وإذا نظرنا إلى هذه الأقوال نجدها كلها تدخل فى مفهوم اللغو وتندرج تحت مسمى واحد يختلف حكمه باختلاف إثمه وخطره ذلك أن اللغو منه ما يكون مباحا ومنه ما يكون مكروها ومنه ما يكون حراما كالكفر والشرك والباطل والكذب والمعصية ومنه قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه﴾... [٢] . أى ائتوا باللغو والباطل عند قراءته حتى تنشغلوا عن سماعه وتشوشوا على من يريد سماعه . وقوله تعالى : ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما﴾. [٣] أى كلاما لا خير فيه أو باطلا أو ما لا يوجب الإثم . ولا يطرق آذانهم فاحشُ الكلام . ولا يلحقهم إثم مما يسمعون ولا يسمعون باطلا ولا كذبا كشأن الدنيا.

٤- القول المختار

والذى أميل إليه واختاره من هذه الأقوال : أن اللغو يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو مباحا ليس بالمرء إليه ضرورة وحاجة . والمراد هنا أن المفلحين قد أعرضوا عن اللغو مطلقا بكل أنواعه لغو القول ولغو الفعل وبكل أحكامه ، الحرام منها والمكروه والمباح ، لأن المقام مقام مدح لهم وثناء عليهم ، فإنه سبحانه مدحهم بأنهم يعرضون [٤] عن هذا اللغو والإعراض عنه لا يتم إلا بأن لا

---

(١) تفسير الإمام الرازى : ١١/٣٤٥ - ٣٤٦ ، ط : دار الغد .

(٢) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

(٣) سورة الواقعة : الآية ٢٥ .

(٤) الإعراض : الابتعاد ، وأصله الحصول فى عرض غير عرضه أى فى ناحية غير ناحيته.

يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه ، وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ ... وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ . [١]

قال قتادة : (أتاهم والله من أمر الله ما وقذهم عن ذلك – أى ما منعهم عن الباطل – وهو يشمل الشرك والمعاصى وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال) [٢] . فالمؤمن لا يفعل فعلا ولا يقول قولا إلا إذا علم أنه يعود عليه وعلى أمته بالنفع والخير ولذلك فهو يجتنب كل ما لا ثمرة له أو هدف أو غاية أو جدوى من قول أو فعل ولا ينشغل إلا بما يعنيه ، ولا يصرف جزءا من وقته فى غير فائدة ولا يكثر الضحك فإن القلب الخاشع ساكن وقور ، ولا يمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد ، ولا يغتب أحدا ولا يجرح هيئة ولا يتكلم إلا بخير ، ويدرك جيدا أن الواجبات أكثر من الأوقات ، لذلك فهو ينتفع بوقته ويعاون غيره على الانتفاع به ، فلم يبق فى وقت المؤمن فراغ ليملأه باللغو واللهو واللعب .

٥- أسباب إعراض المؤمنين عن اللغو :-

لم يأت إعراض المؤمنين عن اللغو من فراغ ، بل هناك أسباب دفعتهم إلى ذلك من أهمها :-

١-ما فى اللغو من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه ، مع ما هم فيه من الاشتغال بما يعنيهم .

٢-أن للمؤمنين من الجد ما شغلهم عن الهزل وكل ما لا خير فيه فى عامة أوقاتهم ، وأحوالهم .

٣-قال صاحب الظلال : (إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر ... له ما يشغله من ذكر الله وتصور جلاله ، وتدبر آياته ، فى الأنفس والآفاق ،

---

[١] سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

[٢] تفسير ابن كثير ٤٥٧/٥ ، ط : دار الشعب ، والدر المنثور .... السيوطى ٤/٥ .

وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، وله ما يشغله من تكاليف العقيدة تكاليفها فى تزكية النفس ، وفى السلوك ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى الجهاد ، وهى تكاليف لا تنتهى ، ولا يغفل عنها المؤمن وهى مفروضة عليه ، فرض عين أو كفاية ، وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشرى ، والعمر البشرى والطاقة البشرية محدودة ، وهى إما أن تنفق فى إصلاح الحياة وتنميتها ، وإما أن تنفق فى اللغو واللهو ، والمؤمن مدفوع – بحكم دينه – إلى إنفاقها فى البناء والتعمير والإصلاح) . [١]

٤–أن من اعتاد الخشوع لله تعالى والقول الصالح ، تجنب القول الباطل والزور .

٥–أن الإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد ، ومن تخلق بالجد فى شئونه كملت نفسه ، ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة .

٦–قال الشيخ الطاهر بن عاشور : (إن الجد فى الأمور من خلق الإسلام ، كما أفصح عن ذلك قول أبى خراش الهزلى يذكر الإسلام :– وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل : سوى العدل شيئا فاستراح العوازل والإعراض عن اللغو يقتضى اجتناب قوله ، وتجنب مجالس أهله لأنهم ليسوا أهلا للتوقير ، فالإعراض عن لغوهم ترفع عن التسفل معهم ، وهذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع الطبقة غير المحترمة) . [٢]

٧–أن اللغو دليل على جهل قائله وسفهه ، ومن أقوال الحكماء فى ذلك : (خمس خصال يعرف بها الجاهل : الغضب فى غير شئ ، والثقة بكل أحد ، والكلام فى غير نفع ، والعظة فى غير موضعها ،ولا يعرف عدوه من صديقه) . [٣] وهذا

---

[١] فى ظلال القرآن – سيد قطب : ٤/٢٤٥٤ – ٢٤٥٥ ، ط : دار الشروق .

[٢] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ١١/١٨ ، ط : الدار التونسية . بتصرف .

[٣] إيقاظ أولى الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية – عبدالعزيز المحمد السلمان : ص ١٣٤ ، ط : الثالثة ، ١٤٠٧ هـ .

الذى ذكرته لا يتنافى مع ترويح المؤمن عن نفسه ، فى ساعة بعد ساعة ، فإن البسمة عنوان الرضى ، ومبعث السرور ، ورسول البشرى ، ولكن هذا شئ آخر غير اللعب ، واللهو ، واللغو ، والفراغ ، والفوضى ، والاستهتار ، فإن ذلك قد اختفى تماما من حياة المؤمنين ومجالسهم .

٦- الأسرار البلاغية :

وفى مجئ الجملة التى وقعت صلة الموصول اسمية وتقديم الضمير المفيد لتقوية الحكم بتكريره ، وتقديم الجار ومجروره وإسمية المسند ما لا يخفى من إفادة الثبوت والدوام والتقوية ، كالشأن فى سائر هذه الجمل التى مدح بها المؤمنون . وفى بيان ما فى قوله تعالى :- ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون﴾ [١] . من أسرار بلاغية يقول الألوسى : (وهذا أبلغ من أن يقال " لا يلهون " من وجوه : جعل الجملة اسمية دالة على الثبات والدوام ، وتقديم الضمير المفيد لتقوية الحكم بتكريره ، والتعبير فى المسند بالاسم الدال كما شاع على الثبات ، وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر ، وإقامة الإعراض مقام الترك ، ليدل على تباعدهم عنه رأسا ، مباشرة ، وتسببا ، وميلا ، وحضورا ، فإنا أصله أن يكون فى عرض – أى ناحية – غير عرضه) [٢]

٨- المعنى الإجمالى :

أن المؤمنين معرضون دائما عن لغو القول ولغو الفعل وعن كل ما لا خير فيه ولا نفع ، كاللعب واللهو ، والهزل وما يخل بالمروءة ، سواء كان حراما أو مكروها أو مباحا لا حاجة إليه ، قد أعرض المؤمنون عن ذلك كلية ، أعرضوا عن مباشرته ، وحضوره ، والتسبب فيه ، أعرضوا عنه بسمعهم ، فلم يسمعوه وأعرضوا عنه بألسنتهم فلم يقولوه ، وأعرضوا عنه بأشخاصهم ، فلم يحضروا مجالس أهله ، ولم يقبلوا عليهم . وهذه صفة ملازمة لهم ، تميزهم عن غيرهم.

---

[١] سورة المؤمنون : الآية ٣ .

[٢] تفسير العلامة الألوسى : ١٨/٤-٥ ، ط: دار الفكر .

٤- إيتاء الزكاة

الصفة الرابعة من صفات المفلحين فى هذه السورة الكريمة ، إيتاء الزكاة وهى المشار إليها بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [١]

١- المناسبة :-

وفى وجه المناسبة بين هذه الصفة وما قبلها قال الألوسى : (وعقب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخى بينهما فى آيات القرآن الكريم ، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة ، وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان فى القرآن معا بلا فاصل ، ووصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدينة والمالية) [٢]

٢- معنى الزكاة لغة وشرعاً :-

فى المعجم (الزكاة لغة : البركة والنماء والطهارة والصلاح ، وفى الشرع : حصة من المال ونحوه ، يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم بشروط خاصة) [٣] وفى معنى الزكاة أيضاً قال الجرجانى (الزكاة فى اللغة : الزيادة ، وفى الشرع عبارة عن إيجاب طائفة من المال ، فى مال مخصوص ، لمالك مخصوص) [٤]

٣- المراد بالزكاة هنا :-

اختلف العلماء فى المراد بالزكاة هنا ، فقال الألوسى (المراد بالزكاة هنا المعنى المصدرى - أى التزكية - لأنه الذى يتعلق به فعلهم ، وإما المعنى الثانى الحاصل بالمصدر ، وهو القدر الذى يخرجه المزكى ، فلا يكون نفسه مفعولا لهم ،

---

[١] سورة المؤمنون الآية : ٤ .

[٢] تفسير العلامة الألوسى : ١٨/٥ ط : دار الفكر .

[٣] المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية ، ص٢٩٠ ، مادة : زكاط : الوزارة .

[٤] التعريفات - الجرجانى ، ص١١٤ ، ط:دار الكتب العلمية بيروت .

فلابد إذا أريد من تقدير مضاف ، أى لأداء الزكاة فاعلون ، أو تضمين " فاعلون " معنى " مؤدّون " [١] ، وقال أبو مسلم (إن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح ، كما فى قوله تعالى ﴿... خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً ...﴾ [٢] أى (طهارة من السوء أو دينا وصلاحا) [٣] وقال الألوسى (واختار الراغب أن الزكاة بمعنى : الطهارة ، واللام للتعليل ، والمعنى : والذين يفعلون ما يفعلون ، من العبادة ليزكيهم الله تعالى ، أو ليزكوا أنفسهم ، ونقل نحوه عن صاحب الكشف حيث قال : معنى الآية : الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس ، عاملون الخير ، ويرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [٤] فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ولا ينبغى أن يعدل عن تفسير بعضه ببعض ما أمكن ، وقال بعض الأجلة : إن اقتران ذلك بالصلاة ينادى على ان المراد وصفهم بأداء الزكاة الذى هو عبادة مالية [٥] وقال ابن كثير (وقد يحتمل أن يكون كلاً الأمرين مرادا ، وهو : زكاةو النفوس ، وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا والله أعلم) [٦]

٤- الاختيار والترجيح :-

لا مانع عندى من كون المراد بالزكاة هنا كلا الأمرين معا ، زكاة الأموال ، وزكاة النفس ، بل هو ما أرجحة وأميل إليه ، لأن المؤمن لايجود بالزكاة إلا إذا طهرت نفسه من البخل وحب الذات ، ومن كل دنس ، فإن جاد بها ، ترتب على ذلك طهارة ماله ، وكرم نفسه ، وسلامة قلبه ، وقوة ثقته فيما عند ربه تعالى ، أيضاً المقام مقام مدح المؤمنين ، والثناء عليهم فإذا أريد بالزكاة ، زكاة المال والنفس ، كان ذلك أوغل فى باب المدح والثناء ، ثم الثواب والجزاء ، وآكد فى تحقيق الفلاح

---

[١] تفسير العلامة الألوسى : ٥/١٨ ط: دار الفكر .

[٢] سورة الكهف الآية ٨١ ، وانظر المرجع قبل هذا .

[٣] كلمات القرآن ... الشيخ مخلوف ، ص١٨٠ ، ط: دار المعارف .

[٤] سورة الشمس الآية :٩ .

[٥] تفسير العلامة الألوسى : ٥/١٨ ط: دار الفكر . بتصرف .

[٦] تفسير ابن كثير : ٤٥٧/٥ ط: دار الشعب .

لجمعهم بين الامرين معاً ، وهو أفضل وأعظم ، فإن قال سائل : كيف يمكن أن يراد بالزكاة هنا زكاة الأموال ، والآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة ؟ والجواب على ذلك من وجوه :-

١. أن أصل الزكاة ذكر بمكة إجمالاً كالبشارة بأنه ستكون هناك فرائض وأنظمة مالية فى المستقبل ، ثم كان تصديق ذلك بالمدينة .

٢. أن الزكاة كفريضة فرضت بمكة ، والذى كان بالمدينة ، البيان والتفصيل ، والأنواع والمقادير .

٣. وعلى أن المراد بالزكاة هنا الطهرة والتطهر ، فلا مانع من أن يفهم منها فى الدور المدنى معناها الاصطلاحى .

٤. قال ابن كثير (إن التى فرضت بالمدينة ، إنما هى ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة ، كما قال تعالى فى سورة الانعام ، وهى مكية ﴿ ... وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ... ﴾ [1]

وسواء أريد بالزكاة هنا الزكاة المفروضة فى الأموال ، وهى القدر المعطى المزكى به ، أو أريد بها الفضائل والطهر ، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات .

أو أريد بها كل منهما معا ، فالآية دالة على مدح المؤمنيين بذلك ، وحصول الفلاح لهم بأعلى مراتب الفصاحة والبلاغة .

٥- منزلة الزكاة وأثرها فى الفرد والمجتمع :-

الزكاة طهارة للقلب من الشح ، وطهارة للمال من حق الفقير فيه ، وهى حماية للجماعة من الخلل ، الذى يسببه البؤس فى جانب ، والترف فى جانب آخر ، فهى تأمين اجتماعى للعاجزين ، ووقاية للمجتمع من التمزق والانحلال ، قال الشيخ سابق:

---

[1] سورة الانعام الآية : ١٤١ ، وانظر تفسير ابن كثير : ٤٥٧/٥ ط: دار الشعب ، وتفسير سورة المؤمنون ، أ.د/ عبد الغنى الراجحى ، ص٥٤ .

(الزكاة هى أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثلاثين آية ، وقد فرضها الله تعالى بكتابة وسنة نبيه ﷺ وإجماع أمته ، وكانت فريضة الزكاة بمكة فى أول الإسلام مطلقة ، لم يحدد فيها المال الذى تجب فيه ، ولا مقدار ما ينفق منه ، وإنما ترك ذلك لشعور المؤمنين وكرمهم ، وفى السنة الثانية ، على المشهور ، فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال ، وبينت بيانا مفصلاً . [١]

٦- الأسرار البلاغية :-

قال الألوسى : (والمراد بالفعل فى قوله : " فاعلون " الفعل المناسب لهذا المفعول ، وهو الإيتاء ، فهو كقوله : " ويؤتون الزكاة ' فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة ، وإنما أوثر هنا الاسم الأعم ، [٢] وهو ، " فاعلون " لأن مادة " فعل " مشتهرة فى إسداء المعروف ، ولأن وصفهم بفعل التزكية يؤدى إلى أداء العين بطريق الكناية التى هى أبلغ ، ولذلك قال : " والذين هم الزكاة فاعلون " ولم يقل " والذين هم يزكون " [٣]

٧- الأموال التى تجب فيها الزكاة :-

وإتماما للفائدة ، سأبين هنا - بمشئية الله تعالى - بإيجاز أنواع الأموال ونصب زكاتها ، ومقدار ما فيها من زكاة ، وذلك على النحو الآتى :-

١- زكاة النقدين (الذهب والفضة) :-

أ- نصاب الفضة ومقدار الواجب :-

(الحد الأدنى للمال الذى تجب فيه الزكاة من الفضة : هو خمس أو اق ، والأوقية أربعون درهما فيكون النصاب مائتى درهم ، وتساوى هذه القيمة أربعة

---

[١] فقه السنة - سيد سابق :١/٢٧٦-٢٧٧ ط: دار التراث .

[٢] الفعل أعم من العمل ، والعمل أخص منه ، لإطلاقه على الفعل المقصود بنية بينما لايشترط ذلك فى الفعل ، بل هو مجرد حدث فأعمال البهائم فعل وأثر الريح فى شئ فعل ، تفسير سورة المؤمنون - أ.د/ عبد الغنى الراجحى ، ص٤٥ .

[٣] تفسير الألوسى : ١٨/٥ ط: دار الفكر ، بتصرف .

وعشرين وستمائة جرام ، فإذا بلغت الفضة مائتى درهم ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه ، قل أو أكثر ، فإنه لاعفو فى زكاة النقد بعد بلوغ النصاب ، فإن نقص المال عن هذه القيمة فلا زكاة فيه) [١]

ب- نصاب الذهب ومقدار الواجب :-

(لاشئ فى الذهب حتى يبلغ عشرين ديناراً ، فإذا بلغ عشرين ديناراً ، وحال عليها الحول ، ففيها ربع العشر ، أى نصف دينار ، وما زاد على العشرين ديناراً يؤخذ ربع عشره كذلك) [٢]

٢- زكاة الحيوان :-

أ- نصاب الإبل ومقدار الواجب :-

قال الجزيرى (أول نصاب الإبل خمس ، وفيها شاة - من الضأن أو المعز - وهكذا فى كل خمس شاة إلى عشرين ، فإن بلغت خمسا وعشرين ، ففيها بنت مخاض [٣] ، وإذا بلغت ستا وثلاثين ، ففيها بنت لبون [٤] فإذا بلغت ستا وأربعين ، ففيها حقه [٥] فإذا بلغت إحدى وستين ففيها جذعة [٦] فإذا بلغت ستا وسبعين ، ففيها بنتالبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين ، ففيها حقتان ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ، ففيها ثلاث

---

[١] دعائم الإسلام فى ضوء السنة أ.د/ أحمدد عمر هاشم ، ص٥٥ ، ط: دار الطباعة المحمدية .

[٢] فقه السنة - السيد سابق : ٢٨٢/١ .

[٣] وهى : ما بلغت من الإبل سنة ، ودخلت فى الثانية .

[٤] وهى : ما أتمت ستتين ودخلت فى الثالثة .

[٥] وهى : ما أتمت ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة .

[٦] وهى : ما أتمت أربع سنين ودخلت فى الخامسة .

بنات لبون ، فإذا بلغت مائة وثلاثين كان فى كل أربعين بنت لبون ، وفى كل خمسين حقه ، وما بين كل فريضتين معفو عنه ، لا زكاة فيه) [١]

ب- نصاب البقر ومقدار الواجب :-

(وأما البقر فلا شئ فيها ، حتى تبلغ ثلاثين ، فإذا بلغت ثلاثين ، ففيها تبيع ، أو تبيعه [٢] ولا شئ فيها غير ذلك حتى تبلغ أربعين ، فإذا بلغت أربعين ، ففيها مسنة [٣] ولا شئ فيها حتى تبلغ ستين ، فإذا بلغت ستين ، ففيها تبيعان ، وفى السبعين مسنة وتبيع ، وفى الثمانين مسنتان ، وفى التسعين ثلاثة أتباع ، وفى المائة مسنة وتبيعان وفى العشرة والمائة مسنتان وتبيع ، وفى العشرين والمائة ثلاث مسنات ، أو أربع أتباع وهكذا ما زاد ففى كل ثلاثين تبيع ، وفى كل أربعين مسنة) [٤]

هذا والجاموس صنف من البقر ويضم بعضه إلى بعض

جـ- نصاب الغنم ومقدار الواجب :-

قال السيد سابق : (لا زكاة فى الغنم حتى تبلغ أربعين ، فإذا بلغت أربعين ، ففيها شاة ، إلى مائة وعشرين ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ، ففيها شاتان ، إلى مائتين ، فإذا بلغت مائتين وواحدة ، ففيها ثلاث شياة إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت على ثلاثمائة ، ففى كل مائة شاة .

ويؤخذ الجذع [٥] من الضان ، والثنىُّ [٦] من المعز . [٧]

---

[١] الفقه على المذاهب الأربعة عبد الرحمن الجزيرى : ١/٥٢٩ -٥٣٠ ط: دار الإرشاد ، بتصرف ، وراجع المختار من كنوز السنة أ.د/ محمد شوقى خضر ، ١/٥٦٨ ، ط: دار الطباعة المحمدية .

[٢] وهو : ماله سنة من البقر أو الجاموس .

[٣] وهى : مالها سنتان .

[٤] فقه السنة - السيد سابق : ١/٣٠٩ -٣١٠ ، ط: مكتبة دار التراث .

[٥] وهو ما أتى عليه أكثر السنة .

[٦] وهو ماله سنة .

[٧] فقه السنة - السيد سابق :١/٣١٠ ، ط: مكتبة درا التراث .

(والغنم يشمل الضأن والمعز ، وهما جنس واحد ، يضم أحدهما إلى الآخر ، إلا أنه إن كانت الغنم ضأناً ، تعين الإخراج منها ، وإن كانت معزا ، فالإخراج من المعز ، وإن كان ضأناً ومعزا ، فالإخراج من الغالب منها ، وإن تساويا خير الساعى) [١]

هذا ويشترط لإيجاب الزكاة فى الإبل والبقر والغنم ، أن تبلغ نصابا وأن تكون سائمة – أى راعية من الكلأ المباح فى أكثر العام .

٣– نصاب التمر ومقدار الواجب :–

(قد بين النبىﷺ أنه ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ، والوسق ستون صاعا ، ويبلغ النصاب بالكيل المصرى الآن ، أربعة أرادب وكيلتين ، فإذا نقص التمر عن هذا الحد ، فليس فيه زكاة ، وإذا زاد زكى الأصل ، والزائد بحسابه ، ولا وقص ، فإذا بلغ التمر خمسة أوسق تجب فيه الزكاة ، وهى العشر ، وليس فيما دون ذلك شئ) [٢]

هذا والأصل فيما سبق من زكاة الفضة والإبل والتمر ما أخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺأنه قال " ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة " [٣]

٤– نصاب زكاة الزروع والثمار ومقدار الواجب :–

(ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الزكاة لاتجب فى شئ من الزروع والثمار حتى تبلغ خمسة أوسق ، بعد تصفيتها من التبن والقشر ، فإن لم تصف بأن تركت فى قشر ها – كالأرز إذا ترك فى قشره – فيشترط أن تبلغ عشرة أوسق .

---

[١] المختار من كنوز السنة أ.د/ محمد شوقى خضر :٥٦٧/١ ، ط: دار الطباعة المحمدية .

[٢] المرجع السابق ، ص٥٨٩ .

[٣] أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى ك : الزكاة : ٥٣/٧ .

والنصاب فيهما خمسون كيلة بالكيل المصرى ، ولا يسقطها الدين ، وتجب بالنضج والنضج فى كل شئ بحسبه .

وذهب أبو حنيفة إلى وجوب الزكاة فى القليل والكثير لعموم قولهﷺ " فيما سقت السماء العشر " [١] ولأنه لايعتبر له حول ، فلا يعتبر له نصاب ، وقد رد عليه الجمهور ، بأن عموم هذا الحديث - الذى استدل به - مخصص بحديث مسلم السابق. [٢]

(ويختلف القدر الذى يجب إخراجه ، باختلاف السقى ، فما سقى بدون استعمال آلة ، بأن سقى بالراحة - ففيه عشر الخارج ، فإن سقى بآلة أو بماء مشترى ، ففيه نصف العشر ، فإن كان يسقى تارة بآلة ، وتارة بدونها ، فإن كان ذلك على جهة الإستواء ، ففيه ثلاثة أرباع العشر) [٣]

٥- زكاة النقود وعروض التجارة :-

(ومقدار الزكاة فى النقود ، وفى عروض التجارة ، ربع العشر ، ولا يزكى عنهما ، إلا إذا ملك النصاب ، وحال عليه الحول ، ولم يكن عليه دين يستغرق النصاب) [٤]

٦- زكاة الركاز :-

(الرِّكاز : مشتق من ركز يركز ، إذا خفى ، والمراد به هنا : ما كان من دفن الجاهلية قال مالك: " إن الركاز إنما هو دفن يوجد من دفن الجاهلية ، مالم يطلب

---

[١] أخرجه البخارى فى صحيحه بشرح ابن حجر ك : الزكاة ب: العشر فيما يسقى من ماء السماء وبالماء الجارى : ٣/٣٤٧ ، ط: السلفية .

[٢] مذهب الجمهور : أن الزكاة إنما تجب فيما يكال ويدخر للاقتيات كالقمح والشعير والتمر والزبيب ، ومذهب أبى حنيفة : أن الزكاة تجب فى جميع ما أخرجته الأرض من حب أو زرع أو ثمر قل أو كثر ، إلا الحطب والحشيش والقصب الفارسى ومالا ثمر له .

[٣] فقه السنة - السيد سابق ١/٢٩٧-٣٠٠ ، ط: مكتبة التراث ، بتصرف واختصار .

[٤] المختار من كنوز السنة -أ.د/ محمد شوقى خضر : ١/٥٦٧-٥٦٨ ، بتصرف .

بمال ، ولم يتكلف فيه نفقة ولا كبير عمل ، ولا مؤونة ، والواجب فيه الخمس ، ولا يعتبر فيه الحول) [١]

والأصل فى زكاة الزروع والثمار ، ومقدار الواجب فيها : ما رواه البخارى بسنده عن النبى ﷺ أنه قال " فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيّاً[٢] العشر ، وما سقى بالنضح[٣] نصف العشر "[٤]

والأصل فى زكاة الركاز ، ومقدار الواجب فيه : ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : " العجماء جبار البئر جبار ، وفى الركاز الخمس " [٥]

ويأخذ حكم الركاز : البترول ، قال أ.د/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر " وزكاة البترول كزكاة الركاز فيها الخمس ، وعلى الدول الثرية بالبترول أن تجنب خمس أرباحها لتنفقه فى مصارف الزكاة المحددة) [٦]

---

[١] فقه السنة – السيد سابق : ١/٣١٥-٣١٨ ، بتصرف .

[٢] " عَثَرِيّاً " بفتح المهملة المثلثة وتشديد التحتانية وكسر الراء ، وهو الذى يشرب بعروقه من غير سقى وهو المستنقع فى بركة ونحوها يصب إليه من ماء المطر فى سواق تشق له واشتقاقة من العاثورة : وهى : الساقية التى يجرى فيها الماء لأن الماشى يعثر فيها – ومنه الذى يشرب من الأنهار بغير مؤنة أو يشرب بعروقه كأن يغرس بأرض يكون الماء قريبا من وجهها فيصل إلى عروق الشجر فيستغنى عن السقى ، فتح البارى : ٣/٣٤٩ .

[٣] " النضح " بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة أى بالسبانية ، والمراد بها الإبل التى يسقى عليها .

[٤] فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ك : الزكاة ، ب: العشر فيما يسقى من ماء السماء : ٣ / ٣٤٧ .

[٥] المرجع السابق ك الزكاة ، ب: فى الركاز الخمس : ٣/٣٦٤ .

[٦] العبادة أحكام وأسرار : أ.د/ عبد الحليم محمود ، ص٣٣٨ ، ط : بيروت .

٥- حفظ الفروج

الصفة الخامسة : من صفات المؤمنين فى هذه السورة الكريمة ، هى حفظ الفروج (العفة) وهى المبينة فى قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[١]

١- المناسبة :-

قال الشيخ محمد بن عاشور فى المناسبة بين هذه الصفة وما قبلها (وذكر حفظ الفرج عطفا على الإعراض عن اللغو ، لأن من الإعراض عن اللغو ترك اللغو بالأحرى ، ولأن زلة الصالح قد تأتيه من انفلات أحد هذين العضوين ، من جهة ما أودع فى الجبلة من شهوة استعمالهما ، فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما ، بان يكون فى الأمور الصالحة التى أرشدت إليها الديانة)[٢] وأقول فى تلك المناسبة أيضاً : إن الإعراض عن اللغو طهارة للسان ، وإيتاء الزكاة طهارة للقلب والمال ، وحفظ الفرج طهارة للنفس والروح ، والأسرة والبيت ، والجماعة والمجتمع من دنس المباشرة فى غير حلال ، وهذه الصفات كلها يجمع بينها كونها من العبادات التى بين العبد والعبد .

٢- بيان المفردات :-

قوله (والذين هم لفروجهم حافظون) أى (والذين هم لفروج أنفسهم وعنى بالفروج فى هذا الموضع ، فروج الرجال ، وذلك أقبالهم ، حافظون : يحفظون من إعمالها فى شئ من الفروج)[٣] والحفظ : الصيانة والإمساك وحفظ الفرج معلوم : أى عن الوطء ، وشبهه .

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥-٧ .

(٢) التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر عاشور : ١٨/١٤-١٥ ، ط: الدار التونسية .

(٣) تفسير الطبرى : ٩/٢٢٠ ، ط: دار الغد .

(إلا على أزواجهم أو ماملكت إيمانهم) بقول الطبرى (إلا من أزواجهم اللاتى أحلهن الله للرجال بالنكاح ، أو إمائهم) [١]

قال الجمل (قوله " إلا على أزواجهم " فيه أربعة أوجه : الأول : أنه متعلق يحافظون على تضمين معنى ممسكين أو قاصرين ، وكلاهما يتعدى بعلى والمعنى : والذين هم لفروجهم قاصرون على أزواجهم ، بمعنى يقصرونها عليهم ، الثانى : أن "على" بمعنى " من " أى : إلا من أزواجهم وعليه فالمعنى : يحفظون ويصونون فروجهم من كل من يقربها إلا من الزوجات أو المملوكات ، الثالث : أن يكون فى موضع نصب على الحال ، أى " والين أو قَوامين عليهم ، والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال إلا فى حال تزويجهم أو تسرّيهم ، الرابع أن يتعلق بمحذوف يدل عليه ' غير ملومين " وكأنه قيل : يلامون على كل مباشرة إلا على ما أحل الله لهم فإنهم غير ملومين) [٢]

قوله " فإنهم غير ملومين " اللوم : هو الإنكار على الغير ماصدر منه من فعل أوقول لايليق عند اللائم ، قال الطبرى (فإن من لم يحفظ فرجه عن زوجه وملك يمينه ، وحفظه عن غيره من الخلق ، فإنه غير موبخ على ذلك ولا مذموم ، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنبا يلام عليه) [٣]

قوله " فمن ابتغى وراء ذلك " (وراء : بمعنى خلاف وغير ، وأصله فى اللغة ، أنه اسم المكان الذى فى جهة الظهر ، ويطلق على الشئ الخارج عن الحد المحدود ، ثم توسع فيه ، فصار بمعنى " غير " أو " ماعدا " كما هنا) [٤]

وقوله " ذلك " المشار إليه به هو المذكور فى قوله " إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم " اى الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وما شاء من الإماء ، أى وراء

---

(١) المرجع السابق .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين : ١٨٤/٣ ، ط/ عيسى الحلبى ، بتصرف ، وانظر تفسير الرازى ، ٣٤٧/١١ ، ط: دار الغد .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢٠/٩ ، ط: دار الغد .

(٤) التحرير والتنوير – محمد الطاهر عاشور : ١٤/١٨-١٥ ، ط: الدار التونسية .

الأزواج والمملوكات ، ويدخل فيما : " وراء ذلك " الزنا واللواط ، وإتيان البهائم ، ونكاح المتعة ونكاح العارية والاستمناء باليد وقوله " العادون " هم الكاملون في العدوان المتناهون فيه كما يشير إلى ذلك الإشارة بما يشار به إلى البعيد ، والتعريف ، وتوسيط الضمير) [١]

قال الطبرى (فمن التمس لفرجه منكحا سوى زوجته وملك يمينه ، فأولئك هم العادون حدود الله ، المجاوزون ما أحل الله لهم ،إلىما حرم عليهم ، الذين يتعدون الحلال إلى الحرام) [٢]

٣- التفسير والإيضاح :-

بعد تفسير ما فى هذه الآيات من مفردات ، نكون قد عرفنا شيئا عن مفهومها ومعانيها ، وإكمالا لهذه المعرفة ، أتناول هنا بعض أقوال العلماء فى تفسيرها حتى يتم الفهم لها والنفع بها وتكتمل الفائدة :-

أ- قال القرطبى عند تفسير قوله تعالى " إلا على أزواجهم أو ماملكت إيمانهم " (وهذا يقتضى تحريم الزنا وما قلناه : من الاستمناء ونكاح المتعة ، لأن المتمتع بها لاتجرى مجرى الزوجات ، ولا ترث ولا تورث ، ولا يلحق بها ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المدة التى عقدت عليها وصارت كالمستأجرة) [٣]

ب- فى تفسير قوله " فإنهم غير ملومين " قال ابن عاشور (هذا تعليل للاستثناء السابق ، وفيه تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء ، لأن الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات ، ولا يمنع من الدخول فى الفلاح ، والاتصاف به ، فأريد زيادة بيان أنه أيضاً لا يوجب اللوم الشرعى ، فيدل هذا

---

[١] تفسير سورة المؤمنون ، أ.د/ عبد الغنى الراجحى ، ص٤٦ ، بتصرف .

[٢] تفسير الطبرى : ٩/٢٢٠-٢٢١ ، ط: دار الغد ، وانظر كلمات القرآن ... فضيلة الشيخ مخلوف ، ص:٢١٠ ، ط: دار المعارف .

[٣] تفسير الإمام القرطبى : ٦/٤٦٣٩ ، ط: دار الغد .

بالمفهوم على أن عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعى ليحذره المؤمنون ، والفاء فى قوله " فإنهم غير ملومين " تفريع للتصريح على مفهوم الاستثناء ، الذى هو فى قوة الشرط فاشبه التفريع عليه جواب الشرط ، فاقترن بالفاء تحقيقا للاشتراط ، أو أنّ الفاء هنا واقعة فى جواب شرط مقدر تقديره : إن بذلوا فروجهم لأزواجهم وإمائهم فقط فإنهم غير ملومين) [١] وزيادة فى تقرير التحذير السابق فرع عليه فقال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [٢] (وذلك لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه ، غريزة طبيعية ، يخشى أن تتغلب على حافظها و " وراء " منصوب على أنه مفعول " ابتغى " أو هو باق على ظرفيته والمفعول به محذوف ، أى : فمن طلب أخريات سوى الأزواج والإماء فأولئك هم المعتدون ، لأنهم قد تجاوزوا ما أحل إلى مالا يحل) [٣]

٤- البلاغيات وأسرار التعبير :-

أ- قال الدكتور الراجحى (وأضاف الملك لليمين فى قوله : " أو ما ملكت أيمانهم " لأن الملك قوة ، واليمين عنوان القوة والقدرة ، فأسند الملك إليها ، وإن كان المالك الحقيقى هو الشخص ، هذا والإجماع خصص ذلك بالمملوكات دون المملوكين ، وعليه فلا يحل لا مرأة أن تتسرى عبدها ، لأن المرأة كالوعاء لايصلح إلا أن يخصص لواحد ، وأما الرجل فلا غضاضة أن يكون له أكثر من وعاء ، ولهذا تتعدد الزوجات للرجل ، ولا تتعدد الأزواج للمرأة الواحدة ، وكان للرجل فى الجنة ما شاء من الحور العين ، والزوجات ، ولكن ليس للمرأة إلا زوج واحد ، حتى لو كانت فى الدنيا قد تزوجت أكثر من واحد خيرت فى ألاخرة لتختار أحسنهم أخلاقاً ...) [٤]

---

(١) التحرير والتنوير : الشيخ محمد الطاهر عاشور : ١٨/ ١٤-١٥ ، ط : الدار التونسية .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٧ .

(٣) التحرير والتنوير : الشيخ محمد الطاهر عاشور : ١٨/ ١٤-١٥ ، وحاشية الجمل على الجلالين : ٣/١٨٤ ، وزاد المسير ، الإمام الجوزى : ٥/٣١٤ ، بتصرف .

(٤) تفسير سورة المؤمنون : أ.د/ عبد الغنى الراجحى ، ص٤٥-٤٦ ، وتفسير القرطبى ٦/٤٦٣٨ ، ط: دار الغد .

ب- قال الشيخ ابن عاشور (وأتى باسم الإشارة فى قوله " فأولئك هم العادون " لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ، ليكون وصفهم بالعدوان مشهورا مقررا) [١]

جـ- قد علمنا أن المراد بملك اليمين هو الجوارى والإماء ، والتعبير عنهن بـ" ما " لنقصهن بالأنوثة ، فوق نقصهن بالمملوكية والبيع والشراء قال الرازى (وعبر عن الإماء بما التى هى لغير العقلاء فقال : " أو ما ملكت أيمانهم " دون " من " لأنه " اجتمع فى السرية [٢] وصفان : أحدهما : الأنوثة وهى مظنة نقصان العقل ، والآخر : كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع ، فلا جتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء) [٣]

٥- المعنى الإجمالى :-

من صفات المؤمن ، انه لايعرف الفوضى الجنسية ، ولا يقبل الاختلاط الهمجى ، ولا الشذوذ والانحراف ، ولا العرى والمجون ، ولا يرضى لمائه أن يروى أرض غيره ، أو يستقر فيها ، ولا يحرث أرض الآخرين ، ولا يبذر بذره فيها ، بل عف عن الحرام ، وصان فرجه عما لايحل ، من الزنا واللواط ، واكتفى بما أحل له ، من زوجه وأمته ، ولا يتعداهما ، حتى ينجوى من المآخذة والعذاب ، واللوم والعتاب ، وهذه الآيات تحدد الماوضع النقية التى يحل للرجل أن يودعها ماءه ، وتحصرها فى الأزواج وملك اليمين ، ولا زيادة بسبيل من السبل ، فمن قصد غير ذلك ، فقد جاوز الدائرة المباحة ، ووقع فى الحرام ، واعتدى على الأعراض التى لم يستحلها بنكاح ولا استرقاق وهنا تفسد النفس والبيت والجماعة ، وهذا هو ما يحذرنا منه الإسلام ويعمل لوقايتنا منه ، وفى معنى الآيات السابقة قال ابن كثير (أى : والذين قد حفظوا

---

[١] التحرير والتنوير : ١٨/ ١٤-١٥ .

[٢] السُرِّية : بضم الأول وتشديد الثانى نسبة إلى السر وهو الجماع أو الإخفاء لأن المرء يسرها عن حرته ، وضمت سينه لأن الأبنية قد تغير عند النسب ، وقيل : هى مشتقة من السرور ، لأن الإنسان يسر بها ، حاشية الجمل على الجلالين : ٣/١٨٤ .

[٣] تفسير الإمام الرازى : ١١/٣٤٧-٣٤٨ ، ط: دار الغد .

فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه ، من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم وما ملكت إيمانهم من السرارى [١] ومن تعاطى مكا أحله الله له ، فلا لوم عليه ولا حرج ، ومن قصد غير الأزواج والإماء فأولئك هم المعتدون) [٢]

****

---

[١] السرارى : جمع سرية وقد سبق بيانها ، ص: ١٩٧ هامش : ٢ .

[٢] تفسير ابن كثير : ٤٥٧/٥ ، ط: دار الشعب .

٦- رعاية الأمانة والعهد

الصفة السادسة من صفات المفلحين فى هذه السورة الكريمة ، رعاية الأمانة والعهد وهى المشار إليها بقوله تعالى ، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [١] وفى هذه الآية الكريمة ، نرى الحق عز وجل يذكر صفة أخرى من جلائل صفات المفلحين ، تضاف إلى رصيدهم السابق من الصفات الحميدة ، وهى رعاية الأمانة والعهد ، تنحل إلى فضيلتين هما : فضيلتا أداء الأمانة - التى يؤتمنون عليها - والوفاء بالعهد ، ولا ريب أن القيام بحفظ الأمانة وإصلاحها ، والوفاء بالعهد والالتزام به ، علامة على عظم النفس ، وكمال الإيمان ، بل هما من أسمى مظاهر الخلق الكريم ، والشرف النفيس ، والعزيمة القوية ، والمروءة التامة .

١- المناسبة :-

وفى بيان المناسبة بين هذه الصفة وما قبلها قال الألوسى : (وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ، ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها) [٢]

٢- معنى الأمانة والعهد والرعى لغة واصطلاحا :-

أ- معنى الأمانة لغة واصطلاحا :-

الأمانة فى اللغة : اسم مصدر " أمن " وفى الاصطلاح " اسم لكل ما اؤتمن عليه الإنسان من امانات وودائع بدليل جمعها والأصل فى المصدر عدم الجمع وفى المعجم : (الأمانة : الوفاء والوديعة) [٣]

---

[١] سورة المؤمنون الآية : ٨ .

[٢] روح المعانى : ١١/١٨ ، ط: دار الفكر .

[٣] المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية ، ص٢٦ ، مادة : أمن ، ط: الوزارة .

ب- معنى العهد لغة واصطلاح :-

العهد فى اللغة : اسم مصدر عهد ، وفى الاصطلاح : اسم لكل ما عوهد عليه الإنسان من عهود ومواثيق ، وفى الصحاح (العهد : الأمان واليمين والموثق والذمة والحفاظ والوصية ، وعهد إليه من باب فهم ، أى : أوصاه ، ومنه أشتق العهد الذى يكتب للولاة) [١]

وعرف الجرجانى العهد فقال (حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال هذا أصله ، ثم استعمل فى الموثق الذى يلزم مراعاته وهو المراد) [٢]

جـ- معنى الرعى لغة واصطلاحا :-

الرعى فى اللغة : اسم مصدر رعى ، وفى الاصطلاح : حفظ كل ما أسند إلى الإنسان رعايته وملا حظته ، وفى المعجم (رعى الشئ : رعيا ورعاية ، حفظه ، وتولى أمره ، ورعى له عهده أو حرمته ، لاحظها وحفظها ، والراعى من يحفظ الماشية ويرعاها ، وكل من ولى أمرا بالحفظ والسياسة ، كالملك ، والأمير ، الحاكم) [٣] وقال الألوسى : (وأصل الراعى : حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته ، أو بذب العدو عنه ، ثم استعمل في الحفظ مطلقا) [٤]

٣- أقوال العلماء فى المراد بالأمانة والعهد :-

بعد أن عرفنا معنى الأمانة والعهد والرعى لغة واصطلاحا ، بقى أن نعرف المراد بهذه الألفاظ ، وما الذى يدخل فيها ويندرج تحتها من أمرى الدين والدنيا ؟ وماذا قال العلماء فى ذلك ؟ وإليك أقوالهم ، ثم التعليق عليها .

١- قال القرطبى :

والأمانة والعهد يجمع كل مايحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه،قولا وعملا،وهذا يعم

---

[١] مختار الصحاح - الرازى : ص١٩٢ ، مادة عهد ، ط: مكتبة لبنان .

[٢] التعريفات - ص١٥٩ ، ط : دار الكتب .

[٣] المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية ، ص:٢٦٩ ، مادة : رعى ط : الوزارة .

[٤] روح المعانى : ١١/١٨ ، ط: دار الفكر .

معاشرة الناس ، والمواعيد وغير ذلك ، وغاية ذلك حفظه والقيام به ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل ، أو معتقد) [١]

٢- وقال ايضاً الرازى :

(وأعلم أنه يسمى الشئ المؤتمن والمعاهد عليه ، أمانة وعهدا والعهد ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ، ويقع أيضاً على ما أمر الله تعالى به ، والأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً فى الخيانة فمن ذلك : العبادات التى اؤتمن عليها المرء ، ومن ذلك : ما يلتزمه بفعل أو قول ، فيلزمه الوفاء به ، كالودائع والعقود ، وما يتصل بهما ، ومن ذلك الأقوال ، ومن ذلك : أن يراعى أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره ، وأما العهد فإنه دخل فيه : العقود : والإيمان ، والنذور ...) [٢]

٣- وقال أيضاً الألوسى :

(والآية عند أكثر المفسرين عامة فى كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ، ومن جهة الناس ، كالتكاليف الشرعية ، والأموال المودعة ، والأيمان والنذور والعقود ونحوها ...) [٣]

٤- وقال صاحب الظلال (والأمانات كثيرة ، فى عنق الفرد والجماعة ، وفى أولها أمانة الفطرة ، وقد فطرها الله مستقيمة ، ثم تأتى سائر الأمانات تبعا لتلك الأمانة الكبرى ، والعهد الأول : هو عهد الفطرة كذلك ، هو العهد الذى قطعه الله على فطرة البشر بالإيمان بوجوده ، وبتوحيده ، وعلى هذا العهد الأول تقوم جميع المواثيق والعهود ، والنص يجمل التعبير ، ويدعه يشمل كل أمانة وكل عهد ..) [٤]

---

[١] تفسير الإمام القرطبى : ٤٦٤١/٦ ، ط: دار الغد .

[٢] تفسير الإمام الرازى : ٣٤٩/١١ ، ط: دار الغد بتصرف .

[٣] تفسير العلامة الألوسى : ١١/١٨ ، ط: دار الفكر .

[٤] فى ظلال القرآن - سيد قطب : ٢٤٥٦/٤ ، ط: دار الشروق .

٤- وقفة وتعقيب :-

وبالنظر فى أقوال العلماء فى المراد بالأمانة والعهد هنا ، أراهم قد اتفقوا على أن كلمتى الأمانة والعهد لفظان عامان ، واسعا المعنى شاملا المفهوم ، يدخل فيهما كل أمانة وعهد ، وأن أمانة الفطرة وعهدها أصل لكل أمانة وعهد ، وهذا هو ما أراه وأقول به ، فكل ما اؤتمن عليه المرء ، وعهد إليه حفظه ورعايته ، والقيام على إصلاحه فهو أمانة ففطرة الدين ، والعبادات ، والجوارح ، والأسرة ، والأولاد والزوجة والمال والأقارب والعشيرة ، والجيران والأخوان ، والوطن ، والعمل ، والواجب الملقى على كاهل كل أمرئ ، والصحة والعافية ، والأعضاء والقوى ، والعلم والمعرفة ، وكل ما أنعم الله به علينا من نعم ، وائتمننا ، عليه ، فهو أمانة ، وكل ما عاهدنا الله عليه ، مما أمرنا به سبحانه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وكل ما عاهدنا عليه الناس ، من شئون الحياة ، وكل عهد يقطعه المؤمن على نفسه ، وقد جعل الله شهيداً عليه فيه ، فهو عهد وميثاق ، وهو داخل فى مضمون الأمانة

٥- رعى الأمانة والعهد :-

قد وصف الله تعالى ى هذه السورة الكريمة - المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون ، وكيفية هذه الرعاية تختلف باختلاف نوع الأمانة والعهد ، فرعى أمانة الفطرة مثلا:

بالحفاظ عليها من الانحراف عن استقامتها التى فطرها الله تعالى عليها ، ورعى أمانة العبادات ، بالقيام بها ، وأدائها كاملة على الوجه الذى شرعه الله تعالى ، ورعى أمانة العلم ، بالعمل به ، وتعليمه ، ورعى أمانة الأعضاء والجوارح والقوى والمال ، حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره جل وعلا ، ورعى أمانة الوديعة : أداؤها إلى أهلها دون نقص أو خلل ، ورعى أمانة السر كتمانه عن الآخرين ، ورعى أمانةالوطن : حبه والدفاع عنه ببسالة وعدم إفشاء أسراره وهكذا فى سائر الأمانات ، ورعى عهد الله تعالى : حفظه عن الأخلال به ، وذلك بفعله على أكمل وجه ، ورعى العهد مع الناس ، حفظه عن نقضه ، وذلك بالوفاء به ، هذا والمؤمن مسئول عما لديه من أمانات ، وعن عهده مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات ،

وفى بيان هذه المسئولية قال تعالى ﴿ ..إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (٣)

٦- أهمية رعى الأمانة والعهد واثره فى حياة الأمة :-

رعى الأمانة والعهد من مستلزمات الإيمان ، ومن أسباب الرفعة والفلاح ، فلا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لاعهد له ، ولا خير فى أمة ضاعت بينها الأمانات ، ونقضت فيها العهود ، ولذا كان ضياعها نذير حلول يوم القيامة ، وخراب العالم عن آخره ، فلا تستقيم حياة الأمة إلا أن تؤدى فيها الأمانات ، وترعى فيها العهود ، ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة ، الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان ، والأمانة خاصة من خواص الإنسان كما يفيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٤) ولأهمية رعى الأمانة والعهد فى انتظام حياة الناس واستقرارها تكرر الأمر بأداء الأمانة والوفاء بالعهد فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. ﴾ (٦) وقد جعل الله تعالى الأمر بالوفاء بالعهد أحد الوصايا العشر الموصى بهن فى ختام سورة الأنعام .

---

(١) سورة الإسراء الاية : ٣٦ .
(٢) سورة التكاثر الآية : ٨ .
(٣) سورة الإسراء الآية : ٣٤ .
(٤) سورة الأحزاب الاية : ٧٢ .
(٥) سورة النساء الآية : ٥٨ .
(٦) سورة النحل الآية : ٩١ .

حيث قال تعالى : (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [١] ونهى الله تعالى عباده المؤمنين عن خيانة الأمانة فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [٢]

٧ - البلاغيات وأسرار التعبير :-

ولما كان ما أؤتمن عليه الإنسان من سائر الأمانات المتنوعة ، أكثر مما أخذ عليه العهد به ، جمعت الأمانة دون العهد وقدمت عليه ، فجمع الأمانة لما فيها من التعدد المحسوس المشاهد ، فقال تعالى : " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " قال ابن عاشور (وجمع الأمانة) باعتبار تعددأنواعها ، وتعدد القائمين عليها بالحفظ تنصيصا على العموم) [٣] وتقديم الأمانة والعهد على " راعون " وإضافتهما إلى ضميرهم ، للاهتمام بشأنهما ، وللإيذان بأن لهم اهتماما وعناية بالغة بهما ، واسمية الجملة تدل على ثبات الرعى لهم ودوامه أى كون رعى الأمانة والعهد خلقا لهم ، وسجية فيهم لا تفارقهم ، وقال ابن عاشور أيضاً (والجمع بين رعى الأمانة ورعى العهد لأن العهد كالأمانة لأن الذى عاهدك ، قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد وذكرهما عقب أداء الزكاة ، لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال ، ولذلك سميت : حق الله ، وحق المال ، وحق المسكين) [٤]

٨ - المعنى الإجمالى :-

بين الله تعالى فى قوله " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " أن رعاية الأمانة والعهد معتبر فى حصول الفلاح للمؤمنين ، فوصفهم بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون ، فهى صفة ملازمة لهم دائماً فى كل حين ، فهم قائمون على أماناتهم بحفظها ، وإصلاحها ، وعلى عهودهم بإنجازها والوفاء بها ، وتنفيذ ما تقتضيه ، فلا يخونون إذا ائتمنوا ، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا ، لا يصرفهم عن ذلك صارف ماداموا أحياء .

---

[١] سورة الأنعام الآية : ١٥٢ .

[٢] سورة الأنفال الآية : ٢٧ .

[٣] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر عاشور : ١٦/١٨ ، ط: الدر التونسية .

[٤] المرجع السابق ص١٧ .

٧- المحافظة على الصلوات

الصفة السابعة والأخيرة من صفات المفلحين ، التى وردت فى صدر هذه السورة الكريمة ، المحافظة على الصلوات ، وهى المشار إليها بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [١] وفى هذه الآية ثناء على المؤمنين ، ومدح لهم بالمحافظة على الصلوات ، وعدم تضييعها أو تضييع بعضها ، أو أمر من أمورها ، فإن ذلك معتبر فى حصول الفلاح لهم فى عاجلهم وآجلهم .

١- المناسبة :-

قد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة ، وختمت بها ، فكانت براعة استهلال ومسك ختام لسائر الصفات ، وفى ذلك دلالة على عظيم مكانتها فى بناء الإيمان بوصفها أكمل صورة من صور العبادة ، والتوجه إلى الله سبحانه ، وفيه أيضاً اهتمام بها ، وتعظيم لشأنها ، وفى بيان وجه المناسبة بين هذه الصفة وما قبلها قال ابن عاشور (وإنما ذكرت الصلاة هنا مع تقدم ذكرها ، لأن ذكرها هنالك جاء تبعاً للخشوع ، فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ، ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار فى الذهن ، لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات ، وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويها بها ورداً للعجز على الصدر ، تحسينا للكلام الذى ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولا لسماعها ووعيها فتتأسى بها) [٢]

٢- المراد بالمحافظة على الصلوات :-

المراد بالصلوات هنا : هى الصلوات الخمس المكتوبة عليهم ، والمراد بالمحافظة عليها – كما قال أ.د/ الراجحى (المحافظة على أوقاتها لاسيما أوائل

---

[١] سورة المؤمنون الآية :٩ .

[٢] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ١٨/١٨-١٩ ، ط: الدر التونسية، بتصرف .

الأوقات بشروطها وأركانها) [١] وقال الألوسى : (المحافظة عليها المواظبة على فعلها على أكمل وجه) [٢] وقال القرطبى (والمحافظة على الصلاة إقامتها والمبادرة إليها أوائل أوقاتها ، وإتمام ركوعها وسجودها) [٣] وقال ابن عطية (والمحافظة على الصلاة : رقب أوقاتها ، والمبادرة إلى وقت الفضل فيها) [٤]

٣- القول المختار :-

إن المحافظة على الصلاة ، تشمل المحافظة على تأديتها فى أول أوقاتها مسبغا وضوءه ، مراعيا طهارة المكان ، والثوب والجسد ، متحليا بالخشوع ، سلكنا مستحضرا عظمة خالقه سبحانه ، متما ركوعها وسجودها ، وشروطها ، وسائر أركانها ، وسننها وآدابها ، ومستحباتها ، مطمئنا فى الأفعال والأقوال ، مواظبا على صلاة الجماعة ، هذا ما أراه وأقول به فى المحافظة على الصلاة ، وقريب منه قول الإمام القرطبى ، لأن المرء لا يصدق عليه كونه محافظا على الصلاة إلا إذا حافظ على كل ما من شأنه أن يبلغ بها حد الكمال والتمام ، ومقام الإحسان صعب المنال ، وقمة الحال ، لأنه : أن نعبد الله كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا .

٤- فضل الصلاة ومنزلتها :-

شرعت الصلاة كعملية ربط وتذكير دائم للنفس البشرية بالذات العلية ، على وصفها الشرعى ، ومن ثم فهى عبادة بين العبد وربه تمحضا لا دخل لأحد بينهما ، وهذا هو السر فى أنها عماد الدين ، وسر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وجعلها خمس صلوات فى الليل والنهار ، وقرنها بالذكر فى كثير من الآيات منها قوله تعالى ﴿ ... وأقم الصلاة لذكرى ... ﴾ [٥] وأنها أول ما يحاسب عليه العبد ، فإن

---

[١] تفسير سورة المؤمنون - آ.د/ عبد الغنى الرجحى ، ص:٤٧ .

[٢] تفسير الألوسى : ١٨/١١-١٢ ، ط: دار الفكر .

[٣] تفسير الإمام القرطبى : ٦/٤٦٤١ ، ط : دار الغد .

[٤] المحرر الوجيز ... ابن عطية الأندلسى : ١١/٢٢٣ ، ط: المجلس العلمى بمكناس .

[٥] سورة طه الآية : ١٤ .

صلحت صلح أمره كله ، وإلا فسد أمره كله ، وسر قرنها فى مقـــام التمـدح بلفـظ الإقامة فى كثير من الآيات منها قوله تعالى ﴿ .. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة..﴾[١] وفى مقام الذم قوله تعالى ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ [٢] وفى توجيه ذلك قال أ.د/ الراجحى (ومـــا ذلـك إلا لتوجـه الصـــلاة وتعلقها بذات عزيزة عجيبة الشأن ، إذ هى غاية فى الخفاء ، إدراكا وتصورا ، بينما هى غاية فى الوضوح ، أفعالا وآثارا ، قال تعـالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) [٣] ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمـر فزع إلى الصلاة ، وكان يقول ﷺ " جعلت قرة عينى فى الصلاة " [٤] وكـــان يقـول صلى الله عليه وسلم " أرحنا بالصلاة يا بلال " [٥] ولا ريب أن الصلاة ذات فضل بالغ ومنزلة سامية ، ومكانة عظيمة فى بناء الإيمان ، بوصفها أكمل صورة مـن صـور العبادة ، والتوجه إلى الله تعالى ، وتكرار استحضار الوقـوف بيـن يديـه سـبحانه ومناجاته .

٥- المعنى الإجمالى :-

ومن صفات المؤمنين ، كما قال تعالى : " والذين هم على صلواتهم يحافظون أى : " ومن صفات المؤمنين – إضافة إلى ما سبق – أنهم يحافظون على صلواتـــهم ، فلا يتكاسلون عن أدائها ، فيفوتونها ، ولا يهملونها ، فيضيعونها ، ولا يقصـــرون فى إقامتها كما يجب أن تقام وإنما يؤدونها كاملة فى أوقاتها تامة الأركـان والســنن

---

[١] سورة البقرة الآية : ٣ .

[٢] سورة النساء الآية : ١٤٢ .

[٣] سورة الحديد الآية : ٣ .

[٤] مسند الإمام احمد بن حنبل : ١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥ ، ط: دار صادر ، وســنن النســائى كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، ٦١/٧ .

[٥] مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٣٦٤/٥ ، ٣٧١ .

مستوفية الفرائض والآداب منشغلين بـــها عمـــا عداهـــا مفرغيـــن قلوبـــهم لـــها ، مستحضرين عظمة ربهم سبحانه وتعالى

٦- البلاغيات وأسرار التعبير :-

وفى قوله : والذين هم على صلواتهم يحافظون " من وجوه البلاغة وأسرار التعبـــير القرآنى ، ما أشار إليه الألوسى ، حيث قال (وأتى بالفعل المضـــارع فـــى قولـــه " يحافظون " دون الاسم كسابقه ، لما فى الصلاة من التجدد والتكرر ، ولـــذا جـــاءت مجموعة – فى قراءة السبعة ماعدا الأخوين – فكان التعبير بالمضارع المفيد للتجـــدد والحدوث ، أى : كلما تجدد وقت من أوقاتها ، أحدثوا له محافظة ، و ليـــس ذلك تكرارا لما وصفهم به أولا من الخشوع فى جنس الصلاة للمغايرة التامة ، بيـــن ما هنا وما هناك [١] وتقديم حالة الخشوع للاهتمام به ، فإن الصلاة بدونه كلا صلاة، ولأن الخشوع أعلى مقاما من مجرد المحافظة عليها فى أوقاتـــها وألصـــق بمعنـــى الإيمان المذكور بجواره ، وقيل : تقديمه لعموم ما هنا له) [٢]

٧- منزلة هذه الصفات وفضلها :-

وفى بيان مكانة هذه الصفات ، وأثرها فى حياة المؤمنين قال صاحب الظلال (تلـــك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين ، المكتوب لهم الفلاح .

وهى خصائص ذات أثر حاسم فى تحديد شخصية الجماعـــة المؤمنـــة ، ونـــوع الحياة التى تحياها ... الحياة الفاصلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله ، وأراد له

---

[١] وذلك لأن الإنسان قد يخشع ولا يحافظ ، وقد يحافظ ولا يخشع ، فالمؤمنون قد جمعـــوا بين الكمالين : الخشوع والمحافظة .

[٢] أى : يجوز أن يكون المراد بالمحافظة على الصلوات هنا : المحافظـــة عليـــها وعلـــى خشوعها فذكر الخشوع أولاً ثم ذكر هنا المحافظة عليها مراعى فيها الخشوع أيضـــاً ، فكأنما ذكر مرتين هنا وهناك ، تفسير العلامة الألوسى : ١٨/١١-١٢ ، ط: دار الفكر ، بتصرف .

التدرج فى مدارج الكمال ، ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان ... [١]

وفى هذا المقصد قال ابن عاشور (وقد جمعت هذه الآيات أصول التقوى ، لأنها أتت على أعسر ما تراض له النفس من أعمال القلب والجوارح ، فجاءت بوصف الإيمان : وهو أصل التقوى ، ثم ذكرت الصلاة : وهى عماد التقوى . وذكرت الخشوع : وهو تمام الطاعة ، فهذان من أعمال القلوب وذكرت الإعراض عن اللغو ، وإذا تخلق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك ، لأن اللغو من سوء الخلق المتصل باللسان الذى يعسر إمساكه ، وفى الإعراض عن اللغو خلق للسمع أيضاً . وذكرت إعطاء الصدقات ، وفى ذلك مقاومة داء الشح ، وذكرت حفظ الفرج ، وفى ذلك خلق مقاومة الشهوة وضبطها ، وذكرت أداء الأمانة : وهو مظهر للإنصاف ، وإعطاء ذى الحق حقه ، وذكرت الوفاء بالعهد : وهو مظهر لخلق العدل ، وذكرت المحافظة على الصلاة : وهو التخلق بالعناية بالوقوف عند الحدود والمواقيت ، وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقا راسخا . ونحن إذا تأملنا هذه الخصال ، وجدناها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله ، مثل : الصلاة والخشوع ، وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد ، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل : الصدقة ، وأداء الأمانة ، فكان فى مجموع ذ لك إعمال ملكتى : الفعل ، والترك فى المهمات وهما : منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها) [٢]

ومما يدل على مكانة هذه الصفات ، وعلو شأنها ، ما أشار إليه أ.د/ الراجحى حيث قال (ودخلت الواو العاطفة بين هذه الصفات المذكورة فى صدر سورة المؤمنون ، مع أنها لموصوف واحد ، لأنه قد نُزِل التغاير فى مفهوم الصفات منزلة التغاير بين الذوات ، وإنما يكون ذلك للإيذان بأن كل واحدة من الأوصاف المذكورة

---

[١] فى ظلال القرآن – سيد قطب : ٤/٢٤٥٦-٢٤٥٧ ، ط: دار الشروق .

[٢] التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ١٨/ ١٨-١٩ ، ط: الدر التونسية ، بتصرف .

نعت جليل له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة ، حقيق بأن يقرر له موصوف مستقل ، ولا يجعل تتمة لغيره) [١]

ومن قبل هذا الذى ذكرت ، ومن بعده ، مما يدل على فضل هذه الصفات ، وسمو منزلتها : ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى يسمع عند وجهه كَدَوِىّ[٢] النحل فكمثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه فقال : " اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرض عنا وأرضنا ، ثم قال ، لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر) [٣]

٨- وجه تناسب وترتيب هذه الصفات :-

قد ذكرت هذه الصفات فى غاية التناسب ، وعلى أحسن وأبلغ وجوه النظم والترتيب ، ومن ثم استوجبت فلاح المؤمنين ، وفى بيان ذلك وتوضيحه قال أ.د/ الراجحى (أما وصف الإيمان وتقدمه ، فلا مشاحة فى ذلك ، لأنه المحور والأساس لجميع ما ذكر بعده ، أما بقية الصفات ، فإنها من جهة تدور حول المجاورة والاقتران فالصلاة والزكاة قرينتان متجاورتان غالبا ، كما لا يخفى ، واللسان والفرج قرينان ، وهما مشتركان فى التطاول على تجريح أعراض الناس ، وهما من أكبر مداخل الشيطان على الإنسان ، والأمانة والعهد قرينان ، لقربهما فى المعنى ، فكل ما عهد إلى الإنسان حفظه فهو أمانة .

ومن جهة ثانية : جمعت هذه الصفات بين العبادة البدنية – وهى الصلاة التى كانت براعة استهلال . ومسك ختام لسائر الصفات – والعبادة المالية – وهى

---

[١] تفسير سورة المؤمنون – أ.د/ الراجحى ، ص٥٤-٥٥ .

[٢] دوى النحل : حفيفه . وهو صوت لا يفهم منه شئ ، مختار الصحاح – الرازى ، ص٩١ مادة : دوى .

[٣] مسند الأمام أحمد بن حنبل : ١/٣٤ .

الزكاة – والعبادة الاجتماعية ، المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية بين النـــاس – وهـــى الأمانة والعهد وحفظ اللسان والفرج .

ومن جهة ثالثة : تدور هذه الصفات بين فعل وترك ، إيجاب وسلب فـالصلاة والزكاة ورعاية الأمانة والعهد من القبيل الأول ، وكف اللسان عن اللغو والفرج عـن الزنا من القبيل الثانى .

ومن جهة رابعة : هى إما عبادة فى جملتها بين العبد والعبد – وهى الزكـاة والعهد والأمانة وعدم اللغو وعدم الزنا – وإما عبادة بين العبد والرب تمحضا لا دخل لأحد بينهما– وهى الصلاة) [١]

---

[١] المرجع السابق ، ص٥١ . بتصرف .

٩- غاية فلاح المؤمنين

وفى بيان غاية الفلاح ، الذى كتبه الله للمؤمنين ، ووعدهم إياه ، يقول تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١]

١- المناسبة :-

بعد بيان تلك الصفات ، التى حددت شخصية المجتمع المؤمن – كما يصورها القرآن الكريم – وبينت خصائصه ومقوماته ، ومعالمه وسماته التى تتحدد بها ملامحه ، وتتميز بها ذاتيته ، وبعد أن ألقى القرآن الأضواء الكاشفة ، على مكونات هذا المجتمع – فى صورته المشرقة بالعقيدة الصحيحة والعمل المخلص ، والخلق النبيل – بعد ذلك بين الله تعالى جزاء هؤلاء الذين تحلوا بتلك الصفات الحميدة – إنهم ورثة أعلى الجنات على الدوام .

٢- بيان المفردات :-

" أولئك " إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ، ولو عبر بالضمير لفات هذا الملحظ ، فقد نزلوا منزلة المشار إليه حساً . [٢]

" الوارثون " جمع وارث ، وهو : من حصل على شئ من غير تعب ولا كد ولا معاوضة ، والإرث : انتقال الشيء إلى الإنسان من غير عقد ، ولا ما يجرى مجرى العقد) [٣] " الفردوس " أعلى الجنان ، وقوله :هم فيها خالدون " أى : فى

---

[١] سورة المؤمنون الآية : ١٠-١١ .

[٢] تفسير العلامة الألوسى : ١٢/١٨ ، ط: دار الفكر ، بتصرف .

[٣] تفسير سورة المؤمنون ، أ.د/ عبد الغنى الراجحى ، ص ٥٧ .

الفردوس وهو مما يؤنث ويذكر ، وقيل التأنيث فيه لأن المراد : الجنة ، أو طبقتها العليا) [١] .

وقال ابن عاشور (والفردوس : اسم من أسماء الجنة فى مصطلح القرآن الكريم ، أو من أسماء أشرف جهات الجنة ، وأصل الفردوس فى اللغة : البستان الواسع ، الجامع لأصناف الثمر) [٢] .

" خالدون " الخلود : المكث الطويل ، والمراد : لا يخرجون منها أبدا وجملة " هم فيها خالدون " إما مستأنفة مقررة لما قبلها ، وإما حال مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله ، ومعنى الكلام : لا يموتون ولا يخرجون منها) [٣]

٣- معانى الجمل والتراكيب :-

قال الألوسى (وقوله " أولئك هم الوارثون " أى : أولئك المنعوتون بهذه النعوت الجليلة المذكورة ، هم الوارثون ، أى : الأحقاء بأن يسموا ورّاثا دون من عداهم ، ممن ورث الأموال والضيّاع) [٤]

وقال صاحب الظلال : (ولما كانت الحياة في هذه الأرض ، لا تحقق الكمال المقدر لبنى الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون ، الذين ساروا فى الطريق ، إلى الغاية المقدرة لهم هنالك فى الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال ، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال) [٥]

---

[١] تفسير الألوسى : ١٢/١٨ .

[٢] التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور : ٢١/١٨ .

[٣] تفسير الألوسى : ١٢/١٨ .

[٤] المرجع السابق ، بتصرف .

[٥] فى ظلال القرآن – سيد قطب : ٢٤٥٧/٤ ، ط: دار الشروق .

٤-البلاغيات وأسرار التعبير :- وفى هاتين الآيتين من أساليب وأسرار التعبير ما يلى :-

قال الألوسى(وأشير إليهم بما يشار به إلى البعيد " أولئك " لعلو مرتبتهم ، ورفعة طبقتهم بسبب ما اتصفوا به ، وفى قوله : " وهم الوارثون " قصر بتعريف الطرفين ، قصر الإرث عليهم – قصر صفة على موصوف – فإرث غيرهم كلا إرث ، وقوله " الذين يرثون الفردوس " بيان لما يرثونه ، وتقييد للوارثة بعد إطلاقها ، وبيان لها بعد إبهامها تفخيما لها ، وهى استعارة للاستحقاق ، وفى ذلك من المبالغة ما فيه لأن الإرث أقوى أسباب الملك ، شبه حصولهم على الجنة ووصولهم إليها ، بحصول الوارث على ما ورثه .

وقيل : إرثهم إياها من الكفار ، حيث فوتوها على أنفسهم ، لأنه تعالى خلق لكل منزلا فى الجنة ، ومنزلا فى النار) [1]وعلى هذا القول الأخير يكون التعبير بلفظ الإرث على الحقيقة لا المجاز .

وهكذا جاءت هاتان الآيتان ، بعد أن أجريت على المفلحين الصفات المتقدمة ، لتفيدا أن جدارتهم بما سيذكر بعد اسم الإشارة " أولئك " حصلت من اتصافهم بتلك الصفات ، وقد قرر الله تعالى الفلاح فى سورة المؤمنون ، للمؤمنين الذين اتصفوا بتلك الصفات أولا قبل أن يذكر صفاتهم ، وهذا وعد صادق بفلاحهم ،أفرادا ، وجماعات ، فى الدنيا والآخرة ، وظفرهم بالمراد ، وتوريثهم الفردوس الأعلى ، مع الخلود الدائم والنعيم الباقى ، والله سبحانه لا يخلف وعده ، اللهم اجعلنا من المفلحين ورثة الفردوس الأعلى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وءاخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) [2]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

[1] تفسير الألوسى : ١٢/١٨ ، ط: دار الفكر ، بتصرف .

[2] سورة يونس الآية : ١٠ .

(الخاتمـــة)

الحمد لله الأول والآخر ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليـــه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ،،

فهذه رحلة قصيرة مع صفات المؤمنين فى سورة المؤمنون ، بقى بعد ذلـــك أن أذكر أهم النتائج والعبر التى توصلت إليها من خلال معايشتى لهذا البحث ، وهـــى كثيرة ، ومن أهمها :-

١-أن هذه الصفات حددت شخصية المجتمع المؤمن ، كما يصورها القرآن ، وبينت خصائصه ومقوماته ، ومعالمه وسماته التى تتحدد بها ملامحه ، وتتمـــيز بـــها ذاتيته ، وقد ألقى القرآن الكريم الأضواء الكاشفة على مكونات هذا المجتمـــع ، فى صورته المشرقة بالعقيدة الصحيحة ، والعمل المخلص ، والخلـــق النبيـــل ، وأفرد له سورة من سوره ، تحمل اسم الإيمان وهى سورة المؤمنون .

٢-أن الأعمال لا تصح إلا مع الإيمان ، مهما كانت صالحة . فى ظاهرها – كثـــيرة فى عددها .

٣-أن مسألة الإيمان ، والإسلام ،والكفر ، والنفاق ، من المسائل العظيمة والخطيرة ، لأن الله تعالى علّق بهذه الأسماء ، السعادة ، والشقاوة واستحقاق الجنـــة ، أو النار .

٤-أن الخشوع هدوء واستقرار وسكينة فى القلب ، يتبعه مثل ذلك فى الجوارح .

٥-أن الصلاة المجزية ، هى التى يتحلى مصليـــها بـــالأدب والوقـــار ، والســـكينة والخوف المقتضى تعظيم الله واستحضار عظمته وهيبته ، وسكون الأعضاء .

٦-أن هذه الصفات تمثل آداب المعاملة مع الخالق سبحانه ، وآداب المعاملـــة مـــع الخلق ، وهى رأس الآداب الشرعية ، ومصدر الخيرات كلها .

٧-أن المؤمن الكامل قد شغل نفسه بالمهمات ، واستغرق الاهتمام بالتكاليف ، والقيام بها ، كل قلبه ووقته ، وشغل التفكر كل خاطره ، فلم يعد فى قلبه ووقته ، فراغ متسع ، ليملأه بالأعمال التافهة ، والأقوال الساقطة .

٨-أن إيتاء الزكاة طهارة للقلب من الشح ، وللمال من حق الغير فيه ، وللمجتمع من آلام الفقر والحرمان ، وبعد الفوارق .

٩-حفظ الفروج طهارة للنفس ، والروح ، والبيت ، والأسرة ، والجماعة ، والمجتمع من دنس المباشرة فى غير حلال .

١٠- أن المقياس الذى لا يخطئ للارتقاء البشرى ، هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها ، وتنظيم الدوافع الفطرية ، فى صورة مثمرة نظيفة نقية .

١١- أنه لا صلاح ولا استقامة لأمر المسلمين وحالهم ، ولا فلاح لهم ولا فوز بمطلوب ، إلا إذا أحلوا ما أحل الله لهم ، وحرموا ما حرم عليهم .

١٢- أن الله تعالى ما أحل لعباده إلا ما ينفعهم ، وما حرم عليهم إلا ما يضرهم وأن تشريعه سبحانه قائم على علم تام بمصالح عباده ، ومنطوى على حكم وأسرار لا يعلمها إلا هو جل وعلا .

١٣- أن رعى الأمانة والعهد يدخل فيه كل أمانة ، وكل عهد ، سواء أكان بين الله وعبده ، أم كان بين العبد والناس .

١٤- المحافظة على الصلاة ، تشمل المحافظة على كل ما من شأنه أن يؤدى إلى إكمالها وإتمامها ، كالخشوع وغيره مما لا يحصل إلا لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما سواها ، وحينئذ تكون راحة له ، وقرة عين .

١٥- أن هذه الصفات لها شأن خطير ، ومكانة سامية ، وآثار بالغة فى حياة المؤمنين ، وتمييز مجتمعهم وجماعتهم .

هذه بعض النتائج التى توصلت إليها ، من خلال بحثى هذا ، وهناك الكثير والكثير مما تضمنه ذلك البحث .

وتلك هى الخاتمة ، التى ختمت بها بحثى ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يحسن خواتمنا .

ثم وهذا بحث متواضع ، بذلت فيه وسعى ، فإن وفقت فبفضل الله وعونه ، وإن كان هناك بعض التقصير ، فهذه طبيعة البشر ، والكمال المطلق لله تعالى ، والكمال البشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(مصادر البحث)

١) القرآن الكريم جل من أنزله .

٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقى ، ط: دار الريان .

٣) التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، ط: الدار التونسية .

٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية – سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل ، ط: عيسى الحلبى .

٥) الجامع لأحكام القرآن – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى ، ط: دار الغد أولى ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

٦) المفردات فى غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط: مصطفى الحلبى ١٣٨١هـ-١٩٦١م

٧) التعريفات – الشريف على بن محمد الجرجانى ،ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

٨) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى تحقيق المجلس العلمى بمكناس ، ط :١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

٩) المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية ، ط : وزارة التربية والتعليم ١٤١٦هـ-١٩٨٥م .

١٠) الأدب فى الدين – أبو حامد محمد الغزالى ، بتحقيق عبد الله أحمد أبو زينة ، ط: دار الشروق .

١١) الفقه على المذاهب الأربعة – عبد الرحمن الجزيرى ، ط: دار الإرشاد .

١٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – الحافظ جلال الدين السيوطى .

١٣) المسند – الإمام أحمد بن حنبل ، ط: دار صادر .

١٤) إيقاظ أولى الهمم العالية إلى اغتنام الأيام الخالية – عبد العزيز آلمحمد السلمان ، ط: ثالثة ١٤٠٧هـ .

١٥) تفسير القرآن العظيم – الحافظ ابن كثير تحقيق ، محمد إبراهيم البنا ، محمد احمد عاشور عبد العزيز غنيم ، ط: دار الشعب .

١٦) تفسير سورة المؤمنون – أ.د/ عبد الغنى عوض الراجحى .

١٧) جامع البيان فى تأويل القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ط: دار المعارف ، وط : دار الغد .

١٨) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم – لزين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى ، ط: مصطفى الحلبى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

١٩) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى – أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى ، ط: دار الفكر .

٢٠) رصف المبانى فى شرح حروف المعانى – الإمام أحمد بن عبد النور المالقى ، تحقيق أحمد محمد الخراط ، مجمع اللغة العربية بدمشق .

٢١) زاد المسير فى علم التفسير – الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى ، تحقيق محمد عبد الرحمن والسعيد بسيونى ، ط: دار الفكر ١٤٠٧هـ –١٩٨٧م .

٢٢) سنن النسائى – الحافظ أحمد بن شعيب ، ط: التجارية الكبرى .

٢٣) فى ظلال القرآن – سيد قطب ، ط: دار الشروق ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م .

٢٤) فقه السنة – الشيخ السيد سابق ، ط: مكتبة دار التراث .

٢٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى – للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، ط: دار المعرفة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب.

٢٦) كلمات القرآن تفسير وبيان – الشيخ حسنين محمد مخلوف ، ط: دار المعارف

٢٧) دعائم الإسلام فى ضوء السنة –أ.د/ أحمد عمر هاشم ، ط: دار الطباعة المحمدية الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م .

٢٨) صحيح مسلم بشرح النووى – الإمام أبو ذكريا النووى ، ط: الشعب .

٢٩) العبادة أحكام وأسرار – أ.د/ عبد الحليم محمود ، ط: بيروت .

٣٠) المختار من كنوز السنة أ.د/ محمد شوقى خضر السيد ، ط: دار الطباعة المحمدية طبعة أولى ١٤٠٧هـ –١٩٨٧م .